

أسلمة الإلحاد

قراءة في تقاطعات وخلفيات الإلحاد والتنوير

عبدالله الشتوي



أسلمة الإلحاد

قراءة في تقاطعات وخلفيات الإلحاد والتنوير

محتويات الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

تقريظ

بقلم: د. البشير عصام المراكشي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه.

أخطر الأعداء هم المتسترون المداهنون، المتجمعون تحت لواء «الطابور الخامس» ..

وأقبح أفكار الباطل تلك التي ترفع شعار الحق، فتلتبس على الناس ببعض الحق ..

والتنوير لفظ ساحر في نفسه .. فإذا تدثر بمصطلحات الشريعة زاد سحرا وجمالا .. وزاد التباسا أيضا ..

وإذا كان بعض التنوير خللا في الاجتهاد، وضعفا في آلة الفهم، فإن بعضه الآخر إلحاد متستر، ومعاداة للدين تكتسي بلبوس الدين .. فيكون التنوير حينئذ محاولة لـ«أسلمة الإلحاد» !

إن بيان العلاقة بين التوجهين - على الرغم من وضوحها عند الكثير من الراصدين - خطوة لم يتجرأ أكثر الباحثين عليها؛ ولكنها خطوة لا بد منها، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة.

وهذا ما جعل الأستاذ الباحث عبد الله الشتوي من وُكده أن يفعله في هذا الكتاب، فجاء – على اختصاره – وافيا بمقاصد البيان لهذا الإجمال الذي تتعمد طائفة من التنويريين استعماله ليكون خطابها مقبولا في البيئة الإسلامية المتديّنة.

وأنا أعدّ هذا البحث لبنة أولى تحتاج إلى كثير من المكملات على محاور مختلفة: المحور الفلسفي لبيان زيف التنوير الإسلامي، والشرعي لبيان زيف التأصيلات الشرعية لهذه الطائفة. والفكري السياسي لبيان كيف «يبيع هؤلاء أرواحهم للشيطان» مقابل انتصارات موهومة على خصومهم الإسلاميين.

ولعل الأستاذ الباحث – بما أعرفه عنه من غيرة وجدّ ونشاط وحسن اطلاع - يفصّل ذلك في ما يستقبل من الأيام.

والله الموفق.

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين، وبعد: فهذه كلمات يسيرة جمعتها في هذا الكتاب تتناول موضوع التنوير المعاصر وعلاقته بموجة الالحاد وتيارات التشكيك في الاسلام التي تختبئ وراء دعوات التجديد وتنقيح التراث وأشباه ذلك من المسميات.

فإذا كان تيار الإلحاد واضحا في مهاجمة العقيدة الاسلامية فإن هناك نوعا آخر من الإلحاد يقدم للجمهور باسم التنوير والتجديد الاسلامي، فتختلط أفكاره بدعوات التجديد الأصيلة، ويخلّف ظهوره الإعلامي سيلا من الشبهات الفاسدة وركاما من التشكيكات والوساوس التي تُسوَّق في ثوب التجديد الإسلامي، وربما لبست لبوس الغيرة على الدين، ولا شك أن استمرار هذه التيارات في نهجها سيخلف مشروعا ضخما من الأدبيات والمواد الإعلامية التي تسعى لتفكيك الاسلام من الداخل، وإعادة صياغته على نحو يجعل الإلحاد نفسه إسلاما متنورا.

هذه الأفكار تتسلل خفية لتفتيت البنية العقائدية والتشريعية للمسلمين، وأمام ضغط الواقع والمشاكل السياسية والاقتصادية لا يلتفت لهذه المخططات الدخيلة والتي هي جزء من مسلسل طويل من التشويه والاقصاء المتعمد للإسلام عن المجال العام، والأخطر أن كثيرا من المفاهيم العلمانية التي تشكل عمود هذه الدعوات هي في الأصل مفاهيم لاهوتية أوروبية تمت علمنتها.

وعليه فإن فكرة هذا الكتاب الأساسية تتوخى مقاربة العلاقة والتطابق الكبير بين تياري الإلحاد والتنوير ومقاربة سياقاتهما الفلسفية والتاريخية والسياسية، وجعل القارئ على بيّنة مما ترومه هذه الانحرافات الفكرية، وليست فكرة الكتاب الأساسية نقض دعاوى التنوير لكن غايته إظهار الوجه الآخر للتنوير –وهو الإلحاد- الذي لطالما عمل دعاته على إخفائه ليظهروا بمظهر المفكر أو الباحث الإسلامي.

إن إدراكنا لهذه العلاقة الجلية بين الإلحاد والتنوير المزعوم يجعلنا نفهم حقيقة كثير من الاشكالات الفكرية المعاصرة حول الشريعة والعقيدة الاسلامية، ومصداق هذه العلاقة في واقعنا هو ذاك الاصطفاف المريب للملاحدة مع دعاة هذا النوع من التجديد الاسلامي، فلو تأملنا حملات التشكيك في السنة النبوية (الافتراءات حول الجامع الصحيح للإمام البخاري مثلا) سنجد احتفاء كبيرا بين الملاحدة بهذه الدعوات التجديدية، لإدراكهم أن هذه الدعوات -بما تحمله من آليات تفتقر للنزاهة العلمية- ليست سوى قنطرة موصلة إلى الإلحاد.

ومن هنا فإننا ندرك جليا أن فكر التنوير الغربي الذي دخل بلداننا يحمل في طياته كل مقومات الإلحاد المادي، وهكذا تتقلص المسافة الفاصلة بين دعاة التنوير والملاحدة إلى درجة تنعدم فيها الفوارق بينهما، وأفضل من يوضح هذه العلاقة هو اللورد كرومر[1] الذي أشرف على بث التغريب ونشره في المستعمرات البريطانية حين يقول : (إن المجتمع المصري في حالة من التطور والانتقال السريع، وكانت نتيجته الطبيعية أن وجدت جماعة من أفرادهم مسلمون ولكنهم متجردون عن العقيدة الاسلامية والخصائص الاسلامية، وإن كانوا غربيين فإنهم لا يحملون القوة المعنوية والثقة بأنفسهم، وإن المصري الذي خضع للتأثير الغربي، فإنه وإن كان يحمل الاسم الاسلامي لكنه في الحقيقة ملحد وارتيابي، والفجوة بينه وبين عالم أزهري، لا تقل عن الفجوة بين عالم أزهري وأوروبي)[2].

ويعبر المستشرق البريطاني جب هاملتون[3] عن أمثال هذا المخطط بعد أن سرد عمل الصحف العلمانية والحركات التعليمية في بعض بلدان العالم الاسلامي بقوله : (كانت النتيجة الخالصة لهذه الحركة التعليمية أنها حررت -بقدر ما كان لها من تأثير- نزعة الشعوب الاسلامية من سلطان الدين دون أن تحس الشعوب بذلك غالبا، وهذا وحده تقريبا هو جوهر كل نزعة غربية فعالة في العالم الاسلامي.... إن الاسلام من حيث هو دين فقد القليل من قوته، أما من حيث هو المسيطر على الحياة

---

[1] اللورد كرومر: (1917-1841) اسمه ايفلين بارينغ سياسي ودبلوماسي ومدير مستعمرات بريطاني، كان من كبار دعاة التغريب والمنظرين الاستعماريين في العالم الإسلامي وواحد من الذين وضعوا مخطط السياسة التي جرى عليها الاستعمار البريطاني.

[2] The Earl of Cromer: Modern Egypt 1908, Vol 11, pp.288.9
مقتبس من كتاب (الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية)

[3] جب هاملتون: مستشرق بريطاني، عضو الاكاديمية البريطانية، ولد في مصر وتابع دراسته في بريطانيا، ودرس اللغات السامية (العربية، العبرية، الآرامية)، من كتبه (إلى أين يتجه الاسلام) أو (وجهة الاسلام) ، المجتمع الاسلامي والغرب، كما ترجم الى الانجليزية مختارات من رحلة ابن بطوطة.

الاجتماعية فإنه آخذ في النزول عن عرشه، ......إلى عهد قريب لم يكن للرجل العادي بين الرعايا المسلمين مآرب وأعمال سياسية ولم يكن له أدب قريب إلا الأدب الديني ولم تكن له أعياد ولا حياة اجتماعية إلا مقترنة بالدين، وإذا رأى شيئا عن العالم الخارجي لم يكن ليراه إلا من خلال المنظار الديني، فكان الدين عنده كل شيء، أما الآن فقد اتسع مدى مصالحه في البلاد الراقية ولم يعد نشاطه مقيدا بالدين ... يجد نفسه خاضعا لقانون مدني قد لا يعلم له مصدرا صحيحا يستمد سلطانه منه، ولكن لا شك هذا القانون لا يستمد سلطانه من القرآن ولا من السنة، ولم يعد الدين هو الرابطة الاجتماعية الوحيدة أو على الاقل الكبرى بينه وبين إخوانه، إذ إن مهام أخرى لا تمت للدين بصلة ترغمه على الالتفات اليها، وهكذا نرى سلطان الاسلام قد انفصلت عراه عن حياته الاجتماعية وهذا السلطان ينحسر شيئا فشيئا حتى يقتصر على دائرة صغيرة من الأعمال، حدث كثير من هذا في غفلة من الناس ولم يفطن إلى إدراكه إلا عدد قليل من المتعلمين، ولم يعمد إلى تحقيقه إلا عدد أقل من ذلك)[4].

ولا شك أن ظاهرة التشكيك والقدح في ثوابت الاسلام قديمة قدم الاسلام نفسه. لكن صور هذه القطيعة المعاصرة تختلف ومسالكها تتباين عن المعهود قبلا. هذه القطيعة مع الدين لم تحدث في أوروبا إلا عبر مراحل متتالية وظروف خاصة تتعلق بالديانة الكنسية منذ عصري النهضة والتنوير، وهكذا فإن إلحاد سبينوزا[5] المصبوغ بصبغة دينية في القرن السابع عشر هو الذي أوصل إلى إلحاد نيتشه[6] العدمي في القرن التاسع عشر. ونفس المسار يراد اليوم اتباعه في بلدان العالم الاسلامي باعتبار ذلك هو السبيل الوحيد نحو الرقي والحضارة. وقد سعيت في هذا البحث المختصر إلى بيان بعض أفكار التنويريين والملاحدة وتقاطعاتهما والتي تنزع في الغالب إلى استنساخ التجربة الغربية للتنوير ومحاولة استنباتها في الواقع الاسلامي. فبدأت أولا ببيان المقصود من لفظي التنوير والالحاد على غموض شديد وتقاطع بينهما، بسبب اختلاف الاستعمالات والاصطلاحات، ثم أجملت الموقف العدواني تجاه الدين عقيدة وشريعة، وبعض مناهج التخفي لإخراج الالحاد بمظهر التجديد الديني.

---

[4] من كتاب وجهة الاسلام – لمجموعة من الاكاديميين- حرره جب هاملتون ، ترجمة محمد عبدالهادي أبوريدة ص: 217 و218

[5] باروخ سبينوزا : (1677-1632) فيلسوف هولندي. من أكبر القائلين بوحدة الوجود والمدافعين عنه، كان له دور كبير في التأسيس للعقلانية ونقد اللاهوت في أوروبا من أهم أعماله : رسالة في اللاهوت والسياسة.

[6] فريديرك نيتشه: (1900-1844) فيلسوف ألماني ملحد. من أكثر الفلاسفة تأثيرا في أوروبا، دعا إلى إعادة النظر في جميع القيم، وتبنى فلسفة القوة ، من أشهر كتاباته : هكذا تكلم زرادشت.

ثم جاء التعريج على الخطوط الرئيسية التي يتقاطع فيها الالحاد والتنوير وأهمها إنكاروجود الله عزوجل وتكذيب الوحي على اختلاف في طريقة الانكاروالتكذيب التي مؤداها واحد على كل حال، وبعد ذلك جاء ذكر جملة من المسالك الملتوية التي يسلكها تيار التنوير لملاءمة العقائد الإلحادية مع واقع المسلمين، وختمت بمآل الفكر الالحادي الذي ينتهي مع جحود الخالق العظيم إلى شكل من أشكال الوثنية ! وقد جاء الكتاب بعنوان (**أسلمة الإلحاد**) رجاء أن يعبر تنافر ألفاظ العبارة عن التخبط الشديد والعبث الذي يميزهذا النوع من الدعوات التي تسيرعلى نهج المنافقين الأوائل (**الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**)[7].

وأخيرا أسأل الله عز وجل السداد والتوفيق في القول والعمل وأن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، ويجعله ذخرا لي ولوالدي: (رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ)، كما أسأل الله التوفيق للإخوة القائمين على مركز يقين ويبارك في جهودهم في نقد الأفكار والتيارات المنحرفة. وصلى الله وسلم على نبينا محمد أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه.

[7] سورة التوبة الآية 107

التنوير والإلحاد

نظرا لشيوع مصطلح التنوير في الكتابات المعاصرة فقد تعددت استعمالاته لدرجة التناقض أحيانا، مما جعل كثيرا من اللبس والغموض يعتري لفظ التنوير، وبشكل أقل لفظ الالحاد، وفي هذا التقديم أقدم صورة عن مصطلحي التنوير والإلحاد ونشأتهما وبعض إطلاقاتهما، مع بيان المقصود بالتنوير تحديدا في هذا الكتاب.

1)-التنوير الغربي :

يطلق التنوير على الحركة الفلسفية التي شهدتها أوروبا ابتداء من القرن الثامن عشر وقادها مجموعة من الفلاسفة والمفكرين، مثل فولتير[8] وديدرو[9] في فرنسا، وديفيد هيوم[10] وآدام سميث[11] في اسكتلاندا وكانط[12] في ألمانيا، وبشكل مواز كذلك في أمريكا على يد توماس جفرسون[13] وغيره ...، حيث تمت إعادة بناء الأفكار الفلسفية والسياسية والاجتماعية على أسس العقل مع استبعاد النظم التقليدية التي كانت سائدة دينيا وسياسيا. وأدت هذه الحركة إلى إنتاج غزير من الكتابات والقوانين والاكتشافات وكذا الحروب والثورات...

جاء في معجم الفلسفات الكبرى : يشير هذا المصطلح إلى المذهب العقلاني في القرن الثامن عشر والذي مهدت له بشكل واسع أعمال الفلاسفة السابقين.

[8] : فرانسوا ماريه أرووبه (فولتير) : فيلسوف وأديب فرنسي 1694 –1778م، تبنى المذهب الربوبي وكان مدافعا عن الاصلاح الاجتماعي. وتركت أعماله أثرا كبيرا في التغييرات السياسية والاجتماعية التي أعقبت عصر التنوير.

[9] : ديديرو: فيلسوف وكاتب فرنسي ملحد 1713)-(1784 . ومن أبرز قادة حركة التنوير الفرنسي.

[10] : ديفيد هيوم: فيلسوف ومؤرخ انجليزي ملحد (1776-1711)، صاحب مذهب طبيعي وله أعمال نقدية لبراهين إثبات وجود الله عزوجل.

[11] : أدم سميث: فيلسوف واقتصادي اسكتلندي (1790-1723) . مؤسس علم الاقتصاد الكلاسيكي، ومن أشهر مؤلفاته : ثروة الأمم.

[12] : إيمانويل كانط: فيلسوف ألماني (1724 - 1804) ومن أكثر الفلاسفة تأثيرا في الفلسفة الأوروبية، من مؤلفاته : نقد العقل الخالص ونقد العقل العملي.

[13] : توماس جفرسون: سياسي أمريكي (1826-1743) أحد المؤسسين للولايات المتحدة الامريكية وكاتب إعلان استقلالها، وهو الرئيس الثالث للولايات المتحدة الامريكية.

كما جاء في الموسوعة الفلسفية السوفييتية -وهو تعريف نقدي يساري الحمولة- : (التنوير اتجاه سياسي اجتماعي حاول ممثلوه أن يصححوا نقائص المجتمع القائم ويغيروا أخلاقياته وأساليبه في الحياة، وينشر آراءه في الخير والعدالة والمعرفة العلمية ويكمن أساس التنوير في الزعم المثالي بأن الوعي يلعب الدور الحاسم في تطور المجتمع، والرغبة في نسبة الخطايا الاجتماعية إلى جهل الناس ... ولم يكن مفكرو التنوير يضعون في اعتبارهم الدلالة الحاسمة للشروط الاقتصادية للتطور)[14].

تأثرت هذه الحركة بالتغيرات الفكرية التي سبقت القرن الثامن عشر سواء من حيث علاقة المفكرين بالكنيسة التي كان فيها لأفكار باروخ سبينوزا تأثير كبير، أو من حيث الأفكار السياسية والحقوقية (توماس هوبز [15]نموذجا)، وكذلك الاكتشافات العلمية مثل اكتشافات إسحاق نيوتن[16] وقوانينه عن الجاذبية والأرض والتي غيرت النظرة الكنسية السائدة عن الكون وأعطت أرضية علمية لإعادة التفكير بعيدا عن اللاهوت والخرافات، وبنفس المستوى كان هناك تأثير كبير للفرنسي ريني ديكارت[17] الذي جاء التنوير نوعا من التوسيع لفلسفته العقلانية.

كما كان للظروف السياسية والاقتصادية والدينية والثقافية في أوروبا أثر كبير في حركة التنوير : الاستبداد السياسي، الطغيان الكنسي، الاصلاح البروتستانتي، التطور الصناعي والفلاحي، انتشار المكتبات وتوسع الطباعة ...

ويمكن تحديد المعالم الكبرى لحركة التنوير بالقول أنها حركة عقلانية علمانية تعظم العقل وترفض المقدس وتثق في قدرة الإنسان وحده على تحقيق القيم السامية دون الحاجة إلى قوى غيبية.

وقد ساهم الفكر التنويري في إعادة تشكيل وجه أوروبا السياسي والديني

[14] الموسوعة الفلسفية –وضع لجنة ومن العلماء والأكاديميين السوفييت- ص: 145

[15] توماس هوبز: (1679-1588) فيلسوف وقانوني انجليزي ، دافع عن الحقوق انطلاقا من فكرة "الحق الطبيعي" وأدت أفكاره إلى بلورة فكرة العقد الاجتماعي.

[16] إسحاق نيوتن : (1727-1642) فيزيائي ورياضي إنجليزي ، عرف بصياغة قوانين الحركة والجاذبية وله أعمال أخرى في البصريات وغيرها، كان متدينا مسيحيا يرفض عقيدة الثالوث. من أهم أعماله : الأصول الرياضية للفلسفة الطبيعية.

[17] ريني ديكارت: (1650-1596) رياضي وفيزيائي وفيلسوف فرنسي ساهم بشكل كبير في تطوير علم الرياضيات (الهندسة التحليلية) ، عرف بمنهج الشك الديكارتي، كما كان لأعماله تأثير كبير على مسار الفلسفة الأوروبية.

والاجتماعي ومكنها من التحرر من استبداد بعض الأنظمة السياسية وطغيان الكنيسة، وأطلق حركة علمية وثقافية متحررة بعيدا عن سيطرة الفكر الكنسي. هذه الحمولة الفكرية المتحررة في مقابل التشدد الكنسي أظهرت حركة التنوير حركة عدوانية ضد الدين والتقاليد، أدت إلى الكثير من الصدامات بلغت ذروتها مع الإرهاب والرعب الذي انتهت إليه الثورة الفرنسية، كما كانت سببا لظهور تيار فلسفي فكري مضاد للتنوير خصوصا في الدول التي كانت في صراع مع فرنسا.

2)- التنوير في العالم الاسلامي:

يرجع الجذر اللغوي لكلمة التنوير إلى مادة : نور، وهي ما يقابل الظلام، وفي لسان العرب «قد نوّر الصبح تنويرا، والتنوير: الإنارة، والتنوير: الإسفار»[18].

ويتضح من خلال تداول كلمة التنوير أنها تستعمل لنفس المعاني الذي استعملت به في القرن الثامن عشر والتي تشير في مجملها إلى استخدام العقل ونبذ التقليد. وإذا كان المعنى الاصطلاحي للتنوير في أوروبا قد عرف أخذا وردا بين المتخصصين فإنه في العموم يمكن تحديد الملامح المشتركة بين مختلف الاتجاهات التي توصف بالتنوير كما سبق بيانه في فقرة التنوير الغربي.

وعلى خلاف هذا نجد مصطلح التنوير في العالم الاسلامي فضفاضا يعتريه كثير من الغموض واللبس يصل إلى درجة التناقض في كثير من الأحيان، فمصطلح التنوير شاع تداوله بشكل مطّاط ليشمل دعوات الاصلاح الديني الداعية الى الرجوع إلى الاسلام الأصيل مرورا بالأفكار الثائرة ضد بعض ظواهر التخلف وصولا إلى الدعوات المنسلخة من الاسلام بالكلية !

ويكفي في بيان الغموض والتنازع في استعمال مصطلح التنوير في العالم الإسلامي إدخال شخصيات متناقضة ومتنافرة في دائرة التنوير، فنجد الشيخ محمد الطاهر

---

[18]: انظر لسان العرب لابن منظور.

بن عاشور[19] ورشيد رضا[20] وعلال الفاسي[21] إلى جانب رفاعة الطهطاوي[22] وخير الدين التونسي[23]، ويصل الأمر إلى إدخال غلاة الإلحاد في الدائرة كصادق جلال العظم[24] ومحمد المزوغي[25] وعبدالله القصيمي[26] !!

هذا الاختلاط الغريب يجعل مصطلح التنوير مصطلحا سائلا يصعب التعامل معه، وقصد وضع القارئ في صورة هذا البحث عن علاقة التنوير بالإلحاد أضع تقسيما تقريبيا لتيارات التنوير في العالم الاسلامي :

-التيار الأول: تيار التجديد الاسلامي ويشمل كل الدعوات إلى إعادة إحياء التراث الاسلامي وتصفيته ممن قد يعلق به من الخرافات والبدع باعتماد نفس آليات التنقيح الاسلامي في الحديث والفقه والعقائد، وفي هذا التيار يمكن إدراج الشيخ الطاهر بن عاشور ورشيد رضا وجمال الدين القاسمي[27] .... وهذا التيار غير معني بهذا البحث المختصر عن التنوير والإلحاد.

---

[19] محمد الطاهر بن عاشور : (1973-1879) فقيه جليل مالكي تونسي من أسرة أندلسية الأصل، شيخ جامعة الزيتونة ومفتي تونس، نبغ في علوم الشريعة والعربية وله مؤلفات تشهد على مكانته العلمية من أعظمها تفسيره للقرآن : التحرير والتنوير.

[20] محمد رشيد رضا: (1935-1865) محمد رشيد بن علي رضا القلموني، البغدادي الاصل، الحسيني النسب: صاحب مجلة (المنار) وأحد رجال الاصلاح الاسلامي، من الكتاب والعلماء بالحديث والادب والتاريخ والتفسير.

[21] علال الفاسي: (1974-1910) علال بن عبد الواحد الفاسي الفهري: زعيم وطني مغربي، ومؤسس حزب الاستقلال، ولد بفاس وتعلم بالقرويين وعمل مدرسا بها، وله رؤية اصلاحية دينية وسياسية شرحها في كتابه : النقد الذاتي.

[22] رفاعة الطهطاوي: (1873-1801) رفاعة رافع بن بدوي بن علي الطهطاوي، عالم مصري، من أركان نهضة مصر العلمية في العصر الحديث، ولد في طهطا، وقصد القاهرة سنة 1223 هـ فتعلم في الأزهر. وأرسلته الحكومة المصرية إماما للصلاة والوعظ مع بعثة من الشبان أوفدتهم إلى أوروبا لتلقي العلوم الحديثة.

23 : خير الدين التونسي: (1890-1820) أحد أكبر رموز الإصلاح في تونس، عمل على إصلاح الدولة وتحديث هياكلها، ودعا إلى التجديد والاجتهاد في الشريعة الاسلامية، من أهم مؤلفاته : أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك.

[24] صادق جلال العظم: (2016-1934) مفكر سوري علماني ملحد وأستاذ فخري بجامعة دمشق في الفلسفة الأوروبية الحديثة، وأستاذ زائراً في قسم دراسات الشرق الأدنى بجامعة برنستون، من أهم أعماله كتاب «نقد الفكر الديني».

[25] محمد المزوغي: مفكر تونسي ملحد يعيش حاليا بإيطاليا وأستاذ بالمعهد البابوي للدراسات العربية الاسلامية بروما، له كتابات رافضة للدين وتنتصر للإلحاد مثل: تحقيق ما للإلحاد من مقولة.

[26] عبدالله القصيمي: (1996-1907) مفكر وشيخ سعودي، درس في الأزهر ودافع بقوة عن مذهبه السلفي النجدي وألف في ذلك كتبا لقيت ثناء كبيرا في السعودية، ثم انقلب فجأة ملحدا ناقما على الدين.

[27] جمال الدين القاسمي: (1914-1866) أبو الفرج محمد جمال الدين بن محمد سعيد المعروف بالقاسمي، إمام الشام في عصره، محدث وفقيه ومفسر مصلح وأديب ولد في دمشق، رائد النهضة العلمية في الشام وصاحب تآليف كثيرة منها تفسير (محاسن التأويل) وكتاب دلائل التوحيد.

-التيار الثاني: تيار الإلحاد الصريح وهو الذي يتبنى إسقاط الشريعة الاسلامية فقها وعقيدة والتخلي عنها لصالح الفلسفات الغربية ماركسية كانت أو ليبرالية، وفي هذا التيار نجد صادق جلال العظم ومحمد المزوغي وأدونيس[28] .....

-التيار الثالث : وهو التيار الأوسع بحكم ضبابيته فلا هو أعلن الالحاد الصريح ولا هو دعا إلى التمسك بالإسلام الاصيل، وهو تيار تغريبي علماني يتبنى العلمانية ويدعو إلى الجرأة في نقد التراث من غير قيود، ويجمع أطيافا مختلفة مثل: القرآنيين ومنكري السنة النبوية، والاتجاهات الربوبية التي تنكر الوحي، وتيارات الأنسنة، ودعاة الاقتصار على إسلام التعبد الفردي ...

ويمكن هنا إدراج أسماء مثل : محمد شحرور[29] ونصر حامد أبو زيد[30] وحسن حنفي[31] وطه حسين[32] .

وهذا التيار هو المقصود أساسا في هذا البحث باعتباره تيارا ينزع إلى النقد والتشكيك في العقائد الاسلامية مع تجنب الاصطفاف الواضح مع تيار الالحاد، بالإضافة إلى التيار الثاني باعتباره التيار المطابق لتيار الإلحاد.

ومن المهم الإشارة هنا إلى أن تصنيف هؤلاء في تيار واحد لا يعني اشتراكهم في كل أطروحاتهم أو حتى في أكثرها. بل قد يكون بينهم من الاختلاف الشيء الكبير الذي قد يصل درجة الصراع والخصومة أحيانا. لكن يكفي أن تجمعهم هذه الدعوة لتفكيك أصل الدين وهدم ثوابته.

---

[28] أدونيس: (1930) اسمه الحقيقي علي أحمد سعيد إسبر وتسمى بأدونيس تيمنا بخرافة فينيقية قديمة، شاعر حداثي وكاتب سوري درس في المدرسة العلمانية الفرنسية في طرطوس. ونال شهادة الدكتوراه من جامعة القديس يوسف عن كتابه (الثابت والمتحول).

[29] محمد شحرور: أستاذ الهندسة المدنية في جامعة دمشق. وصاحب رؤية جديدة لما يسمى القراءة المعاصرة للقرآن، وله غرائب وعجائب في التفسير وشذوذات في الفقه لم يأت بها أحد من العالمين.

[30] نصر حامد أبو زيد: (1943-2010) مفكر مصري وباحث في الدراسات الاسلامية، من أشهر الرافضين التراث الاسلامي، والداعين للتحلل من سلطة النص الشرعي واعتماد آليات الهرمنيوطيقا لتفكيك وتجاوز النص الشرعي.

[31] حسن حنفي: (1935-) أكاديمي مصري وأحد منظري اليسار الاسلامي، له اهتمام كبير بفلسفة سبينوزا، من أهم أعماله : «من العقيدة إلى الثورة» و «التراث والتجديد».

[32] طه حسين : (1889-1973) أديب وناقد مصري يلقب بعميد الأدب العربي، حصل على الدكتوراه ثم ابتعث إلى فرنسا ليكمل الدراسة، عاد إلى مصر ليعمل أستاذا للتاريخ ثم أستاذا للغة العربية ثم عميدا لكلية الآداب، ومديرا لجامعة الإسكندرية، ثم وزيرا للمعارف. من أشهر كتبه: في الشعر الجاهلي ومستقبل الثقافة في مصر.

دخلت أفكار التنوير الأوروبي إلى العالم الاسلامي مع بدايات التوسع الاستعماري الأوروبي، فقد كانت هزيمة المماليك أمام جيوش نابليون نقطة تحول واضحة في موازين القوى في مصر، ونقطة اعطت التدفق الثقافي قوة أكبر مع الاختلال الظاهر في موازين القوى، فكانت مصر رائدة في إدخال هذا الفكر التنويري إلى الأدبيات الاسلامية، ومع البعثات التعليمية ازداد التأثر بالتيارات الفرنسية خاصة مع محاولات انشاء الدولة الوطنية الحديثة في مصر، فلا غرابة إذن أن يكون أكثر من تزعم هذا التيار من هذا البلد بدءا من رفاعة طهطاوي وأحمد لطفي السيد[33] وطه حسن وزكي نجيب محمود[34] وعبدالرحمن بدوي[35] وغيرهم[36].

3)- مفهوم الإلحاد:

في لسان العرب: الإلحاد في اللغة: الميل عن القصد.

وفي الشرع ورد الإلحاد بمعان عدة منها: الميل عن الحق والاعتراض كما في قوله تعالى: **(إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا)**[37]، وقوله تعالى: **(لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ)**[38]، وفسر كذلك بالشرك والتكذيب[39] في معانٍ ترجع كلها إلى المعنى اللغوي.

---

[33] أحمد لطفي السيد: (1963-1872) مفكر وفيلسوف مصري، يوصف بأنه رائد من رواد حركة النهضة والتنوير في مصر، درس على الامام محمد عبده وجمال الدين الافغاني، عمل وزيرا للمعارف ووزيرا للخارجية في حكومة اسماعيل صدقي، كما شغل منصب رئيس مجمع اللغة العربية.

[34] زكي نجيب محمود: (1993-1905) كاتب وأكاديمي واستاذ فلسفة مصري، عمل مستشارا ثقافيا للسفارة المصرية في واشنطن وأستاذا زائرا بجامعة كولومبيا (كارولينا)، من مؤلفاته المنطق الوضعي في جزأين، وخرافة الميتافيزيقيا ونحو فلسفة علمية.

[35] عبدالرحمن بدوي: (2002-1917) أكاديمي مصري، من أبرز أساتذة الفلسفة المعاصرين في مصر، وأكثرهم انتاجا فكريا، شغل عدة مناصب جامعية في باريس وعدد من الدول العربية (مصر، لبنان، ليبيا، الكويت)، ويعتبر من أوائل الفلاسفة الوجوديين العرب.

[36] وأشير هنا إلى أن بعض من ذكر في هذا التقديم، اشتهر عنهم تراجعهم عن تهجمهم على الاسلام مثل طه حسين وعبدالرحمن بدوي، وزكي نجيب محمود، لكن أثناء هذا البحث نعرض آراءهم باعتبارها نموذجا يمثل عينة واسعة من التنويريين.

[37] الآية 40 من سورة فصلت.

[38] الآية 103 من سورة النحل.

[39] راجع تفسير جامع البيان عن تأويل آي القرآن (13/ 283 (

وهكذا استخدم مصطلح الالحاد في التاريخ الاسلامي لوصف الأفكار التي تنحرف عن منهج الاسلام، ولم يعرف في التاريخ الاسلامي إنكار وجود الخالق بل كانت غالب مسائل الالحاد تتعلق بإنكار أمور البعث والمعاد وتكذيب الرسالة والنبوات. أما في الاصطلاح الحديث فقد جاء في الموسوعة الفلسفية السوفييتية: (المذهب الإلحادي نسق من الآراء التي ترفض الاعتقاد بما يتجاوز الطبيعة.... فالأساس الفلسفي للمذهب الالحادي هو المادية)[40].

ويعرفه أحد زعماء الإلحاد في القرن التاسع عشر لودفيج بوخنر[41]: (الإلحاد هو الجحود بالله، وعدم الإيمان بالخلود والإرادة الحرة).

أما اسماعيل أدهم[42] فيعرفه بأنه (الإيمان بأن سبب الكون يتضمنه الكون في ذاته وأن ثمة لا شيء وراء هذا العالم)[43].

ويطلق لفظ الإلحاد عموما على الموقف الذي يتبنى عدم الاعتقاد في وجود الإله أو الآلهة، أو بمعنى أخص يتبنى موقفا رافضا لوجود الإله، فعلى المعنى الأول يمكن إدراج اللاأدريين واللادينيين في معنى الإلحاد.

---

[40] الموسوعة الفلسفية –وضع لجنة ومن العلماء والأكاديميين السوفييت- ص: 467

[41] لودفيج بوخنر: (1899-1824) فيلسوف وطبيب وفسيولوجي ألماني ملحد وأحد كبار مؤسسي الطبيعانية الوجودية في القرن التاسع عشر

[42] اسماعيل أدهم: (1940-1911) كاتب مصري ولد بالإسكندرية وتعلم بها، أحرز الدكتوراه في العلوم من جامعة موسكو، وعُيِّنَ مدرسًا للرياضيات فيجامعة سانت بطرسبرغ، ثم انتقل إلى تركيا فكان مدرساً للرياضيات في معهد أتاتورك بأنقرة، ألف رسالته المثيرة للجدل «لماذا أنا ملحد». ومع هذا فإن ترجمة اسماعيل أدهم يلفها الكثير من الغموض فرغم أن الزركلي وغيره ترجموا لاسماعيل أدهم إلا أن آخرين شككوا في ترجمته لأن أكثرها مأخوذ من أغلفة كتبه، ومنهم «بريان ويتاكر" محرر جريدة الغرديان للشرق الاوسط الذي اتهم أدهم باختلاق مؤهلات وشهادات مزيفة، وأوردت مجلة الأدب العربي سنة 1972 تكذيبا لما نشره أدهم عن مؤهلاته : (لم يحصل أدهم على أي شهادة دكتوراه ولم يكن عضوا في أكاديمية العلوم، ولم ينشر أي كتاب أو مقال لا بالروسية ولا بالالمانية ولا حتى بالفرنسية ولا صحة لما قيل عن تأليفه لمجلدين باللغة التركية بعنوان (تاريخ الاسلام)، كما ولم تكن هناك أي علاقة صداقة بينه وبين المستشرق الروسي بارتولد الذي توفي سنة 1930 أي قبل عام من ادعاء أدهم أنه ذهب إلى روسيا، ولم يتلق أي إطراء من المستشرق الروسي كازيمرسكي لأنه لا يوجد شخص بهذا الاسم أصلا).

[43] هذا التعريف والذي قبله لبوخنر من رسالة اسماعيل أدهم (لماذا أنا ملحد).

ومنذ العصر اليوناني ظهر فلاسفة اتخذوا منحى تشكيكيا تجاه كل ما هو ميتافيزيقي مثل ديموقريطس[44] الذي رأى أن الكون عبارة عن مادة محضة(المذهب الذري)، وأبيقور الذي عدل هذا المذهب وبسّطه، وقد نُسِب إليه القول بعدم وجود الإله الخالق، بالإضافة إلى السوفسطائي بروتاغوراس[45] وانكساجوراس[46] وغيرهم، لكن يصعب إدخالهم في دائرة الإلحاد بمعناه المتداول اليوم إما لعدم الوضوح فيما وصل إلينا من أفكارهم أو لتعلق غالب آرائهم برفض الوثنية اليونانية أو برفض الاعتقاد في آلهة ميتافزيقية واعتبار الآلهة كائنات أشبه بالبشر وذات قدرات خارقة.

هذا الاضطراب في فهم معنى الالحاد بقي ملازما لاستعمال هذا المصطلح بسبب الاشكال في التعريف نفسه، ما جعل كثيرا من الملاحدة يصنفون أنفسهم لاأدريين أو يقدمون أنفسهم ملاحدة تارة ولا أدريين تارة أخرى، و يعبر الفيلسوف برتراند راسل[47] عن هذا الاشكال بقوله : (كفيلسوف، إذا كنت أتحدث إلى جمهور فلسفي بحت، ينبغي أن أقول إن عليّ أن أصف نفسي لاأدريا، لأنني لا أعتقد أن هناك حجة قاطعة يمكن من خلالها إثبات أنه ليس هناك إله، من ناحية أخرى، إذا أردت أن أنقل الانطباع الصحيح إلى الرجل العادي في الشارع، أعتقد أنه يجب أن أقول إنني ملحد)[48]. وبنفس الطريقة يجيب زعيم الملاحدة المعاصرين ريتشارد دوكينز عندما سئل عن يقينه بعدم وجود خالق : «أنا لا أدريّ».

بدأ الإلحاد بشكله المعاصر -الذي يعني إنكار وجود الخالق- في الظهور بشكل واضح في القرن الثامن عشر حيث ظهر التمرد على الأديان بشكل أكبر، فإلى جانب الفلاسفة التنويريين الذين لم ينكروا وجود الله وآمنوا بشكل من أشكال الربوبية أو الايمان الكنسي مثل روسو

[44] ديموقريطس: (460 ق.م- 370 ق.م) فيلسوف يوناني وأشهرهم في عصر ما قبل سقراط، سافر إلى مصر وفارس والهند ولقي كثيرا من الفلاسفة، وإليه ينسب المذهب الذري.

[45] بروتاغوراس : فيلسوف يوناني (487ق.م-420ق.م)، تعتبر أفكاره أساس أفكار السوفسطائيين، ويرى أن الانسان هو مقياس كل شيء وهو من يحدد الصواب والخطأ.

[46] انكساجوراس: فيلسوف يوناني (500 ق.م- 428ق.م) درس في أثينا لمدة 30سنة، سجن بسبب رفضه أن تكون الشمس والقمر آلهة، ورأى أن الشمس عبارة عن حجر مشتعل وأن القمر مصنوع من الأرض.

[47] برتراند راسل: (1970-1872) فيلسوف بريطاني ورياضي ومؤرخ ومن مؤسسي الفلسفة التحليلية، ومناهض للامبريالية. حاز على جائزة نوبل للأدب سنة 1950 تقديرا لدفاعه عن القيم الانسانية والحريات الفكرية.

[48] مترجم من مقال لبرتراند راسل : Am I An Atheist Or An Agnostic A Plea For Tolerance In The Face Of New Dogmas

وفولتيروكانط كان هناك فلاسفة ملاحدة مثل : البارون دي هولباخ[49] ودينس ديدرو[50].
لكن الإلحاد سيتوسع أكثر ويأخذ طابعا علميا في القرن التاسع عشر بعد نظرية تشارلز داروين[51] عن أصل الانواع التي وجد فيها الملاحدة نظرية قادرة على تفسير الخلق بعيدا عن الايمان بوجود الله، ثم تتابعت بعدها نظريات إلحادية في الفروع المعرفية الاخرى مثل إلحاد فريديريك نيتشه[52] الفلسفي ، وأوغست كونت[53] في علم الاجتماع، سيغموند فرويد[54] في علم النفس، وكارل ماركس[55] في الاقتصاد. وفي القرن العشرين بلغ الفكر الالحادي ذروته ووصل إلى الحكم باسم الشيوعية في روسيا والصين وكمبوديا وغيرها وتم فرض الالحاد بالقوة، وأبيد ملايين البشر من أجل نشر الالحاد.

ومع نهاية القرن العشرين وبعد كل الفظاعات التي شهدتها البشرية تراجع زخم الالحاد خصوصا مع تيارات ما بعد الحداثة التي صارت أكثر تسامحا مع الدين خلافا للعدوانية الحداثية.

ومع بداية القرن الواحد والعشرين ظهر نوع جديد من الإلحاد يرفض الدين ويسعى لتقويض دعائمه بوصفه يشكل خطرا على البشرية وهو ما يوصف بتيار الإلحاد المسلَّح، وهو وصف يستعمل لوصف مجموعة من الملاحدة النشيطين إعلاميا في

---

[49] دي هولباخ : (1789-1723) كاتب وفيلسوف وموسوعي فرنسي ألماني ملحد، من رواد عصر التنوير الفرنسي، وله كتابات معادية للدين واشتهر بمشاركته في الصالونات الأدبية خلال القرن الثامن عشر.

[50] دينيس ديدرو: (1784-1713) هوفيلسوف وكاتب فرنسي، من زعماء حركة التنوير ورئيس تحرير أول موسوعة حديثة.

[51] تشارلز داروين: (1882-1809) عالم أحياء وجيولوجي بريطاني، سافر في رحلات علمية إلى أمريكا الجنوبية ونيوزيلاندا واستراليا، واشتهر بنظريته عن أصل الانواع.

[52] فريديريك نيتشه: (1900-1844) فيلسوف ألماني ملحد، من أكثر الفلاسفة تأثيرا في أوروبا، دعا إلى إعادة النظر في جميع القيم، وتبنى فلسفة القوة ، من أشهر كتاباته : هكذا تكلم زرادشت.

53 : أوكست كونت : (1857-1798) عالم اجتماع وفيلسوف فرنسي ومؤسس الفلسفة الوضعية التي تهتم بالظواهر اليقينية وتلغي كل فكر تجريدي أو ميتافيزيقي.

[54] سيغموند فرويد: (1939-1856) طبيب نمساوي من أصل يهودي، مؤسس علم التحليل النفسي، صاغ نظرياته عن العقل واللاوعي وطور المعالجة السريرية للأمراض النفسية، وعرف بتشديده على دور الجنس في فهم وتفسير النفس البشرية.

[55] كارل ماركس: () فيلسوف واقتصادي وعالم اجتماع ألماني اشتراكي ثوري، لعبت أفكاره دورا في تطور الحركات الاشتراكية، من أهم أعماله: رأس المال ، بيان الحزب الشيوعي.

التهجم على الأديان مثل : ريتشارد دوكينز[56] وكريستوفر هيتشنز[57] وسام هاريس[58]... في العالم الاسلامي انتقل الالحاد مع موجة الاستعمار العسكري التي نجحت في التوغل ثقافيا في بنية المجتمعات الاسلامية، في البداية كان الامر تمردا على الموروث الثقافي والديني وردة فعل على التخلف الحضاري، ثم استحال فيما بعد إلحادا صريحا مع انتقال الأفكار الغربية الماركسية والليبرالية الى العالم العربي.

بعد عودة المصري اسماعيل أدهم[59] من الدراسة في الاتحاد السوفييتي كتب سنة 1937م رسالته (لماذا أنا ملحد) يشرح فيها أسباب إلحاده واطمئنانه للإلحاد تماما كما يشعر المؤمنون بالسعادة والسكينة، بعدها بثلاث سنوات (1940م) وجد منتحرا على ضفة البحر وفي جيبه رسالة يشرح فيها انتحاره لكرهه للحياة وزهده فيها ويوصي بأن لا يدفن في مقابر المسلمين. وظهر بعد ذلك ملاحدة آخرون من مدارس مختلفة (ماركسية وليبرالية) يحاولون نقض الدين مثل صادق جلال العظم وعبدالله القصيمي ومحمد المزوغي ... وغيرهم.

---

[56] ريتشارد دوكينز: (1941) عالم أحياء تطوري بريطاني وعالم سلوك الحيوان، من المدافعين الشرسين حاليا عن نظرية التطور والمهاجمين للأديان. من كتبه: الجين الأناني. وهم الإله.

[57] كريستوفر هيتشنز: (1949-2011) مؤلف وكاتب مقالات، وناقد اجتماعي وديني، وصحفي بريطاني-أمريكي، اشتهر اعلاميا بمهاجمته الشرسة للأديان وتبشيره بالالحاد المعاصر.

[58] سام هاريس: () مؤلف ومفكر وعالم أعصاب أمريكي. عرف بمهاجمته للأديان. حققت كتبه مبيعات كبيرة خاصة كتاب «نهاية الايمان»، وكتب مناصرا للإلحاد في أكثر الصحف الأمريكية الشهيرة.

[59] اسماعيل أدهم: (1911-1940) كاتب مصري ولد بالإسكندرية وتعلم بها، أحرز الدكتوراه في العلوم من جامعة موسكو، وعُيِّنَ مدرسًا للرياضيات فيجامعة سانت بطرسبرغ. ثم انتقل إلى تركيا فكان مدرساً للرياضيات في معهد أتاتورك بأنقرة. ألف رسالته المثيرة للجدل «لماذا أنا ملحد». ومع هذا فإن ترجمة اسماعيل أدهم يلفها الكثير من الغموض فرغم أن الزركلي وغيره ترجموا لاسماعيل أدهم إلا أن آخرين شككوا في ترجمته لأن أكثرها مأخوذ من أغلفة كتبه، ومنهم «بريان ويتاكر" محرر جريدة الغرديان للشرق الاوسط الذي اتهم أدهم باختلاق مؤهلات وشهادات مزيفة. وأوردت مجلة الأدب العربي سنة 1972 تكذيبا لما نشره أدهم عن مؤهلاته : (لم يحصل أدهم على أي شهادة دكتوراه ولم يكن عضوا في أكاديمية العلوم. ولم ينشر أي كتاب أو مقال لا بالروسية ولا بالالمانية ولا حتى بالفرنسية ولا صحة لما قيل عن تأليفه لمجلدين باللغة التركية بعنوان (تاريخ الاسلام). كما ولم تكن هناك أي علاقة صداقة بينه وبين المستشرق الروسي بارتولد الذي توفي سنة 1930 أي قبل عام من ادعاء أدهم أنه ذهب إلى روسيا، ولم يتلق أي إطراء من المستشرق الروسي كازيمرسكي لأنه لا يوجد شخص بهذا الاسم أصلا).

التّقية الفكرية وتفخيخ الاسلام من الداخل

(يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ)



التقية الفكرية وتفخيخ الاسلام من الداخل:

هنا وقفة لا بد منها، فمن الأمور المهمة التي لا بد من استصحابها أثناء قراءة الأدبيات التنويرية هو الانتباه لمآلات الأفكار والخطابات وما تخفيه وراءها، فقد شاع نقض الأصول الدينية بطريقة غير مباشرة منذ أولى فترات التنوير الأوروبي، ويرجع الأمر في ذلك لسببين : أولهما خطورة الخوض في بعض الأمور العقدية بسبب الواقع السياسي الذي يتخذ موقفا رافضا لأي فكر جديد، وثانيهما هو الجو العام للمجتمعات المتديّنة الذي ترفض التعرض للعقائد الدينية.

تقوم منهجية التخفي هذه على وضع آليات للتفكيك الذاتي من داخل المنظومة الدينية دون الحاجة إلى التهجم والنقض الصريح لأركان الدين وإن اقتضى الأمر الإبقاء على الأسماء الدينية وحشوها بمعاني مناقضة لها ليصل السالك لهذه الطريق إلى نبذ الفكر الديني . ترجع جذور هذه المنهجية إلى الفيلسوف الهولندي باروخ سبينوزا فقد كان الواقع الأوروبي -والهولندي تحديدا- حيث التعصب الديني على أشده دافعا إلى تجنبه للصدام المباشر مع الكهنوت، ومن ذلك القسوة التي تعامل بها اليهود مع اوريال دا كوستا[60] عندما ألف كتابا ينكر فيه بشكل صريح خلود النفس بعد الموت، إضافة لبعض الأحداث التي عاشها سبينوزا شخصيا فقد نجا من محاولة اغتيال، وقتل صديق له على يد متشددين بسبب آرائه الدينية. تظهر هذه الطريقة في كتابات سبينوزا إذ يعمد أثناء بنائه لفكره الفلسفي إلى اعتماد لغة دينية في ظاهرها مع الحفاظ على المعجم التداولي العام عند اليهود والنصارى، لكنه يعيد تعريف كل المفاهيم وفق معان تخالف المتعارف عليه بين اليهود والنصارى، وأحيانا يؤسس استدلالاته ويتوقف قبل الوصول للنتيجة تاركا الأمر لفهم القارئ، ومن أمثلة هذا تحويله كلمة «الله» إلى اسم للكون المادي، وهذا ما دفع كثيرا من الملاحدة للقول بأنهم يؤمنون بإله سبيوزا، كما قال الفيلسوف الأمريكي جورج سانتايانا[61]:

---

[60] اوريال داكوستا: فيلسوف برتغالي هولندي، نشأ كاثوليكيا ثم انتقل الى اليهودية وعمل على تقديم تفسير تاريخي للكتاب المقدس وأنكر عقيدة اليوم الآخر، فلقي معاملة قاسية من اليهود أدت به إلى الانتحار وترك رسالة يهاجم فيها معارضيه.

[61] جورج سانتايانا: (1952-1863) روائي وفيلسوف ودبلوماسي أمريكي إسباني يقدم نفسه ملحدا لاأدريا، عمل استاذا بجامعة هارفرد ثم انتقل إلى اوروبا واشتغل بالتأليف والكتابة، من كتبه : العقل في الدين ، وفكرة المسيح في الإنجيل.

(إن إلحادي مثله مثل إلحاد سبينوزا ،هو إيمان حقيقي تجاه الكون)، ولنفس السبب وجدت فلسفة سبينوزا قبولا لدى فلاسفة ملاحدة مثل نيتشه وماركس وهيجل ...، فهي تؤدي في النهاية إلى إنكاروجود الله بعبارة حلولية تحمل في ظاهرها معنى الإثبات: «الله هوكل شيء».

تنتقل هذه الظاهرة إلى العالم الاسلامي ويكثر السجال بين دعاة نقد التراث بين مؤيد لهذا المسلك الضبابي وبين متهم له بالجبن والتخاذل عن دخول غمار الاصلاح الحقيقي في عمق العقيدة الاسلامية و الاكتفاء بمسايرة الفكر التقليدي العام مع بعض التعديلات .

يوضح محمد عابد الجابري[62] سبب النزوع إلى النقد غير المباشر وتجنب الصدام مع ما يسميه اللاعقل بقوله : (لا الوضعية الثقافية ولا البنية الفكرية العامة المهيمنة ولا درجة النضوج لدى المثقفين أنفسهم يسمح بهذا النوع من الفولتيرية للنقد اللاهوتي، ولا السياسة تسمح وبطبيعة الحال فإن الانسان يجب أن يعيش داخل واقعه لا خارجه حتى يستطيع تغييره)[63].

فإلى جانب طيف من الملاحدة الذين يهاجمون الاسلام ويحاولون نسفه عقيدة وشريعة هناك صنف آخر يحاول تفخيخ الاسلام من الداخل، وقد بلغ محمد أركون[64] درجة كبيرة من الجرأة في نقد الاسلام لكنه مع ذلك بقي متَّهما بالتمويه والخداع والمراوغة[65] من طرف أصدقائه في التيار الحداثي، يصف المفكر اللبناني علي حرب[66] هذين الصنفين بقوله: (أركون يختلف تمام الاختلاف عن مواقف الذين يتعاملون مع النص القرآني بطريقة تبسيطية أحادية تقوم على نفيه واستبعاده، فإن هؤلاء يرشقون القلعة القرآنية الحصينة بحجارة ترتد عليهم، أما أركون فإنه يحاول متسلحا بمنهجيته ذات القدرة الهائلة على الحفر والسبر أن يلج إلى القلعة لكي يقوم بتلغيمها أو تفكيكها من الداخل)[67].

---

[62] محمد عابد الجابري: (1-1936) مفكر مغربي حاصل على شهادة الدكتوراه من جامعة محمد الخامس بالرباط، وهو من أشهر المفكرين المعاصرين وله مؤلفات وأعمال نقدية كثيرة منها رباعيته في نقد العقل.

[63] محمد عابد الجابري- التراث والحداثة ص: 259

[64] محمد أركون : (2010-1928) مفكر علماني جزائري، عمل أستاذا لتاريخ الفكر الاسلامي والفلسفة بجامعة السوربون وعضوا في معهد الدراسات الاسلامية في لندن، وله مؤالفات وأعمال كثيرة في نقد الاسلام.

[65] استعمل هذه الاوصاف المفكر علي حرب في نقده لمنهجية محمد أرغون، انظر كتاب الممنوع والممتنع ص 120

[66] علي حرب : مفكر علماني لبناني له عدد من المؤلفات منها كتاب نقد النص والنص والحقيقة :الممنوع والممتنع، يتخذفيها موقفا معاديا لأصول الاسلام .

[67] الممنوع والممتنع – علي حرب ص: 121

كل هذا مع أن أركون يعيش في فرنسا حيث لا شيء يمنع من انتقاد الاسلام او حتى الاستهزاء به، لذا نجد الحرص على عدم إلغاء الواجهة التراثية للإلحاد واضحة عند حسن حنفي أكثر من أركون، وينقل عنه صالح هاشم: (أذكر أني عندما التقيت حسن حنفي في إحدى المرات قال لي صارخا حتى قبل أن يحييني تقريبا : أنا لست مثل صاحبك أركون ولا أمتلك كل ترفه الفكري، فهو يستطيع أن يشرح التراث الاسلامي ويفككه كيف يشاء ويشتهي لأنه جالس على ضفاف نهر السين حيث لا يخشى أي شيء، وأما أنا فجالس على ضفاف نهر النيل حيث يحاصرني الشارع والتقليديون الأصوليون من كل الجهات)[68].

ويوضح حنفي المنهج الملائم لتدمير التراث الاسلامي وطريقة التسلل إلى تفكيك العقيدة الاسلامية وبمعجم مستمد من حروب العصابات : (نصر أبو زيد بمثابة اسبينوزا، قال أشياء كنت أتمنى أن أقولها ولكن ربما استخدامي لآليات التخفي حال بين فهم ما أردت أن أقول، نحن مجموعة من الأفراد لو اصطادونا لتم تصفيتنا واحدا واحدا، ولذلك أرى أن أفضل وسيلة للمواجهة هي استخدام أسلوب حرب العصابات، اضرب واجرِ !! ازرع قنابل موقوتة في أماكن متعددة تنفجر وقتما تنفجر ليس المهم هو الوقت، المهم أن تغير الواقع والفكر)[69].

وتظهر هذه المنهجية الحربائية بشكل جلي أيضا عند الملحد المصري سيد القمني الذي حاول لفترة طويلة الترويج لنفسه مفكرا إسلاميا رغم الالحاد الصريح في كتاباته، وحاول مرارا التنصل من أقواله لدرجة نطقه الشهادتين في برنامج تلفزي وهو يحاول أن يثبت إسلامه! ثم بعدها يخرج معلنا كفره في ضيافة إحدى المنظمات الالحادية الأوروبية، وهو كما قال الله عز وجل: (**وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ**)[70].

وهكذا انتشر بين دعاة التنوير نوع من التقية الفكرية التي تستبطن أفكارا وتقدم أخرى، وتفضل نقد أصول الدين تلميحا لا تصريحا. وتعتمد التأسيس للتخلي عن الدين من خلال التشكيك وتفكيك مصادر الشريعة بأساليب يميل فيها المتنور إلى الحفاظ على الهيكل العام للدين ولو بلغ أقصى درجات الإلحاد ! وانتشرت في العالم الاسلامي

---

[68] صالح هاشم – الانسداد التاريخي: لماذا فشل مشروع التنوير في العالم العربي
[69] جريدة « أخبار الأدب » في عدد 28/ 12/ 2003
[70] سورة البقرة الآية 14

مؤسسات تنويرية على هيئة مسجد الضرار الأول وأسست كياناتها إرصادا لمن حارب الله ورسوله من الصليبيين واليهود.

والأعجب أن يُخرج هؤلاء إنكارهم لشرائع الاسلام وطعنهم في عقائده مخرج الغيرة على الدين والحرص على نقائه، فتجدهم يقدمون أنفسهم دعاة للإسلام المستنير، فينكرون الأحاديث النبوية غيرة منهم على الجناب النبوي، ويزعمون أن في ذلك تنزيها للنبي صلى الله عليه وسلم عن أوهام ابتدعوها، وتكاد تكون هذه سمة مشتركة بين من يهاجمون دواوين السنة، وما أشبه هؤلاء بحال الوضّاعين الأوائل حين قالوا متأولين كذبهم : (نحن نكذِب له لا عليه)، فلسان حال هؤلاء اليوم : (نحن نُكذِّب الحديث له لا عليه!).

وتجدهم يسعون جاهدين لإسقاط السنة النبوية متظاهرين بتعظيمهم للقرآن الكريم، وهم في الحقيقة لم ينكروا السنة إلا ليتفرغوا لتحريف القرآن حسب أهوائهم !

وبنفس الطريقة يحاولون إقناعك بأنهم يفصلون الدين عن السياسة حفاظا على المقدس من أوساخ السياسة المدنسة !

الاستنساخ المفرط للتجربة الأوروبيـــة

علينا أن نصبح أوروبيين في كل شيء، قابلين ما في ذلك
من حسنات وسيئات
علينا أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم

-طه حسين-

جاء في الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا شبرا وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم، قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: فمن)[71].

هذه النبوءة تتمثل اليوم في واقعنا المعاصر إذ يسارع المسلمون إلى استنساخ التجربة الأوروبية حرفا حرفا ويحاولون التمكين لها باعتبارها السبيل الأوحد نحو النهضة الحضارية.

معركة التنوير ضد الكنسية في أوروبا يراد لها اليوم أن تنتقل إلى العالم الاسلامي تحت ضغط الهيمنة الغربية، وذلك بسلخ المسلمين عن دينهم بالكلية واستيراد الفكر الأوروبي بكل مخرجاته الحضارية بدءا من إقصاء الدين من الحياة العملية (العلمانية) إلى تقليد الأوروبيين في باقي مناحي الحياة .

تقوم الفكرة الأساس للتنوير في العالم الاسلامي على التشابه بين الواقع الأوروبي في القرون الوسطى وواقعنا اليوم في العالم الاسلامي، لذا نجد كثيرا من التكلف في المطابقة بين الواقعية لدرجة استخدام نفس المفاهيم ونقل نفس المعارك إلى واقعنا .

عبَّرطه حسين قيدوم العقلانيين العرب عن هذا المعنى بقوله : (علينا أن نصبح أوروبيين في كل شيء قابلين ما في ذلك من حسنات وسيئات...علينا أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادا ولنكون لهم شركاء في الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يُحب منها وما يُكره وما يُحمد منها وما يُعاب)[72].

1)-عدوانية ضد الدين :

نشأ التنوير الأوروبي ردة فعل ضد الاستبداد السياسي والديني الذي عرفته أوروبا وساهم واقعها في إمكانية الثورة ضد الاستبداد وتغيير آليات الحكم التي كانت سائدة، ولم يكن هذا التغيير ممكنا إلا بكسر الشرعية الدينية التي حكمت بها أوروبا وتفكيك البنية العقائدية التي اعتمدت عليها.

---

[71] صحيح البخاري- كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة- باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: لتتبعن سنن من كان قبلكم.

[72] " طه حسين – مستقبل الثقافة في مصرص: 39

أما الاستبداد اليوم في العالم الاسلامي فلا يقوم على الدين وإن تستر به أحيانا، الاستبداد يأتي من السياسة التي تعتمد نفس مخرجات الحداثة الأوروبية، الاستبداد في واقعنا يمارس باسم الدولة القومية العلمانية كما في تركيا وتونس ومصر، الاستبداد يمارس باسم الاشتراكية العلمانية والقومية العربية وغيرها من الأفكار التي دخلت العالم الاسلامي مع الاستعمار الغربي. كان الدين أول ضحايا هذا الاستبداد منذ تفكيك الدولة العثمانية وتقسيم دول المنطقة، أقصي التعليم الديني وحوصر القضاء الشرعي وألغي الاحتكام للشريعة الاسلامية ودخلت دولنا ثقافات لادينية، وبقيت آخر معاقل الدين في تدين الشعوب أو في مسحة دينية على واجهة دولة علمانية.

ومن هنا فإن الاتجاه الحقيقي للتنوير كان يجب أن يكون منصبا على الدعوة للإصلاح السياسي والتحرر من الهيمنة الاستعمارية، بدل الركون إلى تفكيك ما تبقى من هوية الشعوب المسلمة، لكن بوصلة التنوير انزاحت عن استهداف الاستبداد السياسي مع أن التنوير يحمل مقومات النقد السياسي، وجنح إلى الاكتفاء بنقد الدين المستبعد أصلا عن الحياة العامة، وأحيانا يوظف هذا النقد لمصلحة الاستبداد السياسي سواء خدمة للأنظمة السياسية المحلية أو مواكبة للاستبداد السياسي الذي تفرضه الدول الكبرى المهيمنة عالميا. نتطرق هنا لبعض المحاور التي شملها الصراع الأوروبي بين التنوير والأفكار التي تدور في فلكه وبين الأديان التي كانت سائدة في أوروبا.

(إن الفأس في أيديكم فوجهوا الضربة النهائية لشجرة الخرافة، ولا تقنعوا ببتر الفروع بل استأصلوا العشب الذي استفحلت أضراره المعدية، كونوا على وعي مطلق أن نظام الحرية والمساواة يتناقض تناقضا صريحا مع المهيمنين على مذابح الكنيسة فليس فيهم فرد واحد يؤمن به إيمانا صادقا...، اضربوا بلا رحمة رأسها المتغطرس (يقصد روما) ، ولن يمرَّ شهران حتى تلقي شجرة الحرية بظلالها على كرسي القديس بطرس)[73].

بهذه الرسالة التحريضة وجَّه الماركيز دي ساد[74] الثوار الفرنسيين لاستئصال الدين الكنسي وعدم الاكتفاء بفرنسا بل الخروج لنشر الفكر العلماني خارج فرنسا وإسقاط مركز الكاثوليكية في روما.

---

[73] المدينة الفاضلة عبر التاريخ – ماريا لويزا برنيري – ترجمة عطيات أبوالسعود، ص: 226

[74] الماركيز دي ساد: (1814-1740) روائي ارستقراطي فرنسي،عرف بالتحرر من القيود الاخلاقية والمجون الشديد وقضى فترة طويلة ومتقطعة في السجن، ومن اسمه اشتق لفظ «السادية».

هذه العبارة منذ القرن الثامن عشر تتكرر حرفيا في أدبيات التنوير في عالمنا الاسلامي، ولا تكاد تخطئها العين في الإعلام الخاضع للهيمنة العلمانية، وهو يحرض ضد الاسلام وشعائره باعتباره مصدرا للعنف والإرهاب، ويتكرر أيضا نفس المعجم المصطلحي القديم : تخلف، ظلامية، رجعية، تزمت ...

في ندوة إلحادية في بروكسيل عقدتها منظمة أدهوك[75] سنة 2016 كرّر المصري الملحد سيد القمني[76] نفس المسوغات السابقة في كلام الماركيز دي ساد وهو يدعو الغرب لاحتلال مصر ونشر الثقافة الغربية وإعادة مدارس الإرساليات الأوروبية وأشاد باحتلال فرنسا وبريطانيا لمصر لأنهما أدخلتا معهما الحداثة الغربية. هذه العدوانية المتحاملة تجاه الدين تجد جذورها عند أشهر فلاسفة الإلحاد في القرن العشرين، حيث يقرر برتراند راسل أن السبيل الوحيد لتحقيق السعادة الشاملة للبشرية هو «ذبح الدين» : (المعرفة التي يمكن بها ضمان المعرفة الشاملة موجودة، والعقبة الرئيسية لاستخدامها لهذا الغرض هي الدين، الدين يمنع أطفالنا من الحصول على تعليم عقلاني، الدين يمنعنا من إزالة الاسباب الاساسية للحرب .... من الممكن أن تكون البشرية على عتبة العصر الذهبي، لكن إذا كان الأمر كذلك فسيكون من الضروري أولا أن نذبح التنين الذي يحرس الباب، هذا التنين هو الدين)[77].

لا خلاف أن الأديان قد تكون سببا في الحروب والصراعات، لكن جعلها السبب الرئيسي أو الوحيد اختزال للحقيقة وتنكر للتاريخ.

والملاحظ هنا أن راسل يحاول تعميم تجربة أوروبا مع الكنيسة لصنع تصوراته عن الدين، وهذه نتيجة لمقدمة غير مسلّم بها حتى في أوروبا نفسها، فرغم أن الكهنوت الكنسي كان متغولا في أوروبا قبل عصر الأنوار إلا أن كثيرا من علمائها ممن أسهموا في النهضة الأوروبية لم يكن لهم موقف معادٍ للدين ولا دعوا الى الانسلاخ عنه،

---

[75] منظمة دولية غير حكومية مقرها في لندن ولها فروع في مختلف دول العالم، تقدم نفسها على أنها منظمة لنشر الثقافة المدنية والتعددية وفصل الدين عن السياسة، وتجمع شتات الملاحدة في العالم العربي ، جمعت في أول ندوة لها سنة 2016 مجموعة من اللادينيين العرب، (انظر توضيحا أكثر في الفصل المتعلق بالتوظيف السياسي من هذا الكتاب).

[76] سيد القمني : كاتب مصري علماني من مواليد 1947 ، معظم أعماله تناولت التاريخ الإسلامي بشكل قدحي يغلب عليها الطابع ماركسي.

[77] مترجم من كتاب برتراند راسل: Why I Am Not a Christian: And Other Essays on Religion and Related Subjects صفحة : 47

وكيف يجعل راسل الدين سببا رئيسيا للحرب وقد عاش هو نفسه حربين عالميتين ساحقتين كانتا تتويجا لعقود من العلمنة الشاملة وإقصاء الدين، فهل قتلت كل الحروب الدينية ما أباده صراع الدول القومية العلمانية !! وكيف يمكن أن يتجاهل أن التنوير نفسه منذ انطلاقه في القرن الثامن عشر لم يخل قط من الحروب المدمرة ! بدءا من عصر الارهاب الفرنسي الذي تبنت فيه الدولة الالحاد منهجا لها، مرورا بحروب أوروبا الداخلية وصولا إلى الحملات الاستعمارية التوسعية !

ثم إن الإلحاد الذي ينظّرله راسل لم يكن بعيدا عن الظلم والاستبداد، بل بلغ فيه الغاية وشهدت البشرية أفظع الجرائم في كل الحالات التي وصل فيها الإلحاد للحكم، وإذا كان راسل يقرر أن الدين يمنعنا من إزالة الأسباب الأساسية للحرب فإن الالحاد كان السبب الرئيسي في إشعال كثيرمن النزاعات الدامية، وخلّف الالحاد الشيوعي جرائم أبشع من أن يحصر عدد قتلاها في الصين والاتحاد السوفييتي وفيتنام وكوريا الشمالية وكمبوديا وغيرها[78]. ومارس الالحاد استبدادا وحشيا عندما وصل الثوار الى الحكم في المكسيك سنة 1917م وأبيد عدد كبيرمن رجال الدين الكاثوليك بسبب احتفاظهم بعقيدتهم النصرانية وأصدرت قوانين تجرم الرهبة وتصادر أملاك الكنائس. وسخر الرئيس بلوتاركو إلياس كاليس[79] كل موارد الدولة للقضاء على مظاهر الدين مما أدى إلى اضطرابات ونزاعات واسعة في البلاد. وفي ألبانيا تبنت الدولة الالحاد في دستورها عندما وصل أنور خوجة[80] إلى لحكم بعد الحرب العالمية الثانية وحظرت جميع الأديان بقوة القانون وأغلقت جميع المساجد والكنائس وحُوّلت إلى متاحف ومراقص وفُرضت عقوبات قاسية على (الدعاية الدينية). وهذه الوحشية رافقت الالحاد طيلة تاريخيه منذ القرن الثامن عشر

---

[78] في سنة 1997 طبع في فرنسا كتاب : "الكتاب الأسود للشيوعية: الجرائم والإرهاب والقمع" . وكان خلاصة عمل أحد عشر باحثا أكاديميا. وأعادت مطبعة جامعة هارفارد طبعه في الولايات المتحدة الأمريكية. وكان مما أثار الرُعب هو عدد القتلى الفظيع الذي حصدته الشيوعية أثناء حكمها . والغريب أن المؤلفين قد استثنوا إحصائيات الحروب !! لكن العدد يتجاوز 100مليون في القرن العشرين وحده وجاءت الأعداد موزعة على الشكل التالي : الصين : 65 مليون. في الاتحاد السوفييتي 20 مليون. فيتنام 1 مليون قتيل. كوريا الشمالية 2 مليون قتيل. كمبوديا 2 مليون قتيل. أوروبا الشرقية 1 مليون قتيل. أمريكا اللاتينية 150 ألف قتيل. إفريقيا 1.7 مليون قتيل. أفغانستان 1.5 مليون قتيل.

[79] بلوتاركو إلياس كاليس: (1945-1877) سياسي وضابط مكسيكي حكم بين سنتي 1924 و1928 حاول خلالها فرض الإلحاد بقوة القانون.

[80] أنور خليل خوجة: (1985-1908) زعيم الحزب الشيوعي وجمهورية ألبانيا بعد الحرب العالمية الثانية، تبنى الماركسية اللينينية وبقي في الحكم 40 سنة عرفت فيها ألبانيا أنواعا من القمع والتنكيل وحظر الأديان.

وقد اختصر الكاتب الأمريكي دينيش دسوزا[81] العلاقة الرابطة بين الإلحاد والجرائم التي يرتكبها معتنقوه بقوله : (وقد ارتكبت جرائم الإلحاد عموما من خلال أيديولوجية متغطرسة ترى الإنسان هو صانع القِيم وليس الله، وباستخدام أحدث تقنيات العلم والتكنولوجيا، يسعى الإنسان إلى تهجير الله وخلق جنة العلمانية هنا على وجه الأرض. وبطبيعة الحال إذا كان هناك بعض الناس كاليهود، ملاك الأراضي، وغير الأكفاء أو المعاقين – فيجب القضاء عليهم من أجل تحقيق هذه المدينة الفاضلة (الجنة)، هذا هو الثمن الذي أبدى الطغاة الملحدون –ومن يعتذرلهم- استعدادهم لدفعه . وهم هنا يؤكدون مقولة فيودور دوستويفسكي «إن لم يكن هناك إله، فكل شيء مسموح به").

ولم يختلف الأمر كثيرا في العالم الاسلامي فقد عملت كثير من الأنظمة السياسية العلمانية على قمع التدين ومحاولة مسخ الهوية الاسلامية في عدد من البلدان بعد حقبة الاستعمار كما حدث في تركيا وتونس ومصر وسوريا وغيرها.

وبعيدا عن سياسات الأنظمة نجد نزعة عدائية إقصائية واضحة لدى منظري التيارات الالحادية والتنويرية تقوم على أساس اعتبار الدين مصدر الشرور وأن تقدم البشرية لا يكون إلا من خلال التخلي عن الدين، فلا غرابة إذن أن نجد عند هؤلاء تهجما صريحا على الثوابت الاساسية للإسلام كما سيأتي معنا في ما يستقبل من الكتاب.

2)-هل هناك كهنوت إسلامي؟!

من الأمور التي تتكر في أدبيات التنوير محاولة تخيل نظام كهنوتي في الاسلام إذ أن إسقاط فلسفات التنوير على واقعنا لا يتأتى إلا بالمماثلة التامة بين تاريخ الاسلام وتاريخ المسيحية، وإنه من أكبر الظلم وأعظم الحيف أن تتم المساواة بين الإسلام وبين ديانة نصرانية ومحرفة ! وهنا تسللت إلى مجتمعاتنا مصطلحات لا عهد للمسلمين بها : رجال الدين، الكهنوت، كتب مقدسة... فهل كان للمسلمين نظام كهنوتي ؟

---

[81] دينيش دسوزا: (1961) كاتب وسياسي أمريكي من أصل هندي مناهض للإلحاد، سياسي في الحزب الجمهوري وله آراء بعضها محافظ وأخرى توصف بالعنصرية، تصدرت كتبه قائمة الأكثر مبيعا على لائحة نيويورك تايمز الاسبوعية.

للإجابة على هذا الاستشكال نضع مؤشرات قابلة للتتبع والتحقق نبين من خلالها عدم جدوى المماثلة بين واقع الاسلام والمسيحية الكنسية :

-نشأ نظام الكهنوت المسيحي بقوة سياسية بعد أن دعا الامبراطور قسطنطين الأول إلى عقد مجمع نيقية الأول (325م) ليفصل في الخلاف بين بابا الاسكندرية و آريوس، وحسم الخلاف لصالح بابا الاسكندرية وهكذا تشكل أساس العقيدة الكنسية (الثالوث) واحتكرت الكنيسة سلطة تحديد الايمان الصحيح من عدمه. خلافا لهذا فإن المسلمين قد تلقوا أسس العقيدة منذ العهد النبوي ولم يتدخل في صياغتها أي عوامل خارجية وبقي القرآن محفوظا بين أيديهم مفتوحا لعامة المسلمين.

-الكهنوت الكنسي نظام مغلق دينيا وطبقيا وعرقيا: اكتسب بابا الكنيسة سلطة التحريم والتحليل باعتباره ممثلا لله وليس فقط مجتهدا أو مبلغا عنه، وتناقل القساوسة الأسرار السبعة المقدسة[82] في ما بينهم بطريقة طقوسية تعني إحلال المواهب التي أخذوها عن تلاميذ المسيح.

وتم إغلاق نظام الكهنوت بقيود وشروط جعلته حكرا على طبقات معينة وأعراق محددة خصوصا بعد الانفصال عن المسيحية الشرقية، ولم يجلس على كرسي البابوية رجل من خارج أوروبا منذ القرن الثامن الميلادي إلى القرن الواحد والعشرين[83] رغم اتساع رقعة المسيحية، بل كان كرسي البابوية متداولا بين رقعة أوروبية ضيقة من أوروبا (إيطاليا، ألمانيا، فرنسا، والدول الصغيرة التي تدور في فلكهما، وبابا واحد من انجلترا...)، واكتسب البابا نفوذا سياسيا يتجاوز أحيانا نفوذ الامبراطور الروماني، مثل ما حدث بين الامبراطور هنري الرابع والبابا غريغوري السابع حيث منع البابا الامبراطور الروماني من التعيين في المناصب الدينية فنشأ بينهما خلاف انتهى إلى تهديد البابا بعزل الامبراطور بطريقة مُهينة. وخلافا لهذا فلم يعرف المسلمون نظاما كهنوتيا بهذا الشكل بل كان عامة الفقهاء بعيدين عن ممارسة السلطة السياسية، وفي أحيان كثيرة معارضين لها. ونشأت المذاهب الفقهية وفق تأصيل واضح المعالم يمكن تعرف طرقه في الاستدلال واستنباط الأحكام الشرعية، وفتح الاجتهاد الفقهي أمام المناظرة والمحاججة بعيدا عن الانغلاق الكهنوتي.

---

[82] مجموعة من الطقوس يتم بها الحصول على مواهب ونِعم سرية، وتستعمل فيها وصفات وخلطات متوارثة، هذه المواهب أودعها الله في تلاميذ المسيح أوسلمها المسيح لتلاميذه كي يتناقلها الكهنة - حسب الاعتقاد الكنسي-.

[83] كان البابا فرنسيس (الأرجنتين) سنة 2013م أول بابا من خارج منذ القرن السابع الميلادي (غريغوري الثالث).

ولم يشترط المسلمون في الفقهاء والمحدثين شروطا عرقية أو طبقية ولا توارثوا أسرارا ومنحا إلهية، بل كان كثير من الفقهاء والمحدثين وغيرهم من أصول مختلفة عرقيا (الفرس، الاحباش، الروم، البربر...) وعرف عن كثير من الموالي بالنبوغ في الفقه والحديث والتفسير وغيره بل إن خمسة من القراء السبعة الذين عليهم مدار أسانيد القراءات القرآنية كانوا من الموالي أو أبناء الموالي.

-التميز في التكليف الديني: يعرف الكهنوت المسيحي بالتمييز بين المنخرطين في سلك الرهبنة وغيرهم من عامة الناس من خلال التكاليف الدينية ممن يطلق عليهم مصطلح (العلمانيون)، فليس كل ما يجب على الكاهن يجب على غيره، فالقساوسة في أغلب الكنائس الغربية ممنوعون من الزواج، وملزمون بأداء طقوس دينية معينة خلافا لغيرهم، كما تمنع الكنائس المنخرطين في سلك الرهبنة من مزاولة أعمال أخرى (الدنيوية والتي ترادف العلمانية).

وعلى النقيض من هذا فالمسلمون لم يعرفوا هذا التمايز في التكاليف الشرعية، فالخطاب الشرعي متوجه لكل المسلمين والفرائض التي يؤديها الفقيه المفتي هي نفسها التي تجب على عامة الناس كالصلوات الخمس والزكاة والصيام والحج. ولم يكن فقهاء المسلمين رهبانا يفصلون بين الدين والدنيا بل زاولوا الأعمال الدنيوية كالفلاحة والتجارة وغيرها، ولم يفصلوا بين الدين والدنيا فصلا مؤسساتيا كما هو الحال في الكهنوت الكنسي التي تحدد لوائح المنخرطين في سلك الرهبان وتفصلهم عن عامة الناس (العلمانيين).

-احتكار الوساطة بين العباد وخالقهم: من المهام الأساسية للكهنوت الكنسي الوساطة بين الناس وبين الله، وتلزم الكنائس المؤمنين بالاعتراف بالخطايا والتوبة أمام الكهنة باعتبارهم القادرين على تحديد الخطايا وأحيانا فرض بعض الاعمال تكفيرا عن الذنوب كالصلوات (المطانيات)[84] والصيام. ومن الطرائف أن الناطق باسم الفاتكان سنة 2011 رفض إجازة الفاتكان لتطبيق رقمي يحل محل جلسات الاعتراف الكنسية، وشدد على ضرورة الحضور أمام الكاهن[85] !

---

[84] نوع من السجود المتكرر تعبيرا عن التوبة.

[85] نشر الخبر عدد من الصحف العالمية مثل الصانداي تايمز : http://www.sundaytimes.lk/110213/Timestwo/t2_08.html

وتطور الأمر مع الفساد المستشري في العصور الوسطى داخل الكنيسة الكاثوليكية إلى ما عرف بصكوك الغفران، حيث تقوم الكنيسة بتسلم صك يتضمن الاعفاء من الذنوب مقابل مبالغ مالية !

أما التوبة في الاسلام فلا تكون إلا أمام الله عز وجل ولا تدخلها الوسائط ولا تشترط المجاهرة بذنوب الخلوات ولا الاعتراف بها إلا ما كان من رد للحقوق إلى أصحابها، بل يحث الاسلام على الستر حتى فيما يترتب عليه عقاب دنيوي كما جاء في حديث عبادة ابن الصامت عن النبي صلى الله عليه وسلم: (.... ومن أصاب شيئا من ذلك فعوقب به فهو كفارة له، ومن أصاب شيئا من ذلك فستره الله عليه فأمره إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه)[86] .

كهنوت أم احترامٌ للتخصص ؟

عادة ما يحتج التيار العلماني بأن من حقه الخوض في الشرعيات والعقائد ويدعو الى منع احتكار الدين من طرف الفقهاء بدعوى أن هذا يشكل نوعا من الكهنوت، وفي هذه المقولة مغالطات كثيرة فكل ما يطالب به المسلمون هو احترام التخصص أو بعبارة أدق : التمكن من آليات معرفية متاحة للجميع، فالقرآن كتاب مفتوح أمام التدبر للجميع ودواوين السنة موجودة وطرق الاستنباط معلومة !

فنحن نشترط مثلا في من يدرس القرآن للأطفال أن يكون حافظا متقنا ، فهل هذا نوع من الكهنوت أم هو اشتراط لأمر بدهي ؟ كيف يمكننا أن نسقط شرط الإلمام بلغة العرب وأساليبها لمن يريد تفسير القرآن ؟

وكيف يمكن أن نسقط شرط الاطلاع على السنن ومذاهب الفقهاء لمن يريد الخوض في الاحكام الشرعية ؟

إن أي دستور أو قانون وضعي لا يمكن أن يكون مفتوحا أمام الجميع يؤوله كل أحد كيف يشاء!

وإلا فيستطيع الناس التنصل من أي قانون لأنهم لا يفهمون منه ما يفهمه غيرهم،

---

[86] صحيح البخاري/ باب الحدود كفارة

وسيحتجون بأن لهم كامل الحق في فهم النص القانوني بعيدا عن فكرة «الكهنوت» التي تريد المؤسسات القانونية فرضها !_وسينتهي الأمر هنا إلى فوضى وتخبط لا معنى له.

3)-ثنائية العلم والدين :

كان من أهم سمات التنوير الأوروبي ذلك الصراع الشديد بين الدين بشكله الكهنوتي والعلوم المادية، لدرجة أصبح فيها هذا الصراع معلما بارزا في تاريخ الحضارة الأوروبية، ولعل أشهر نموذج يقدم عن الصراع بين العلم والكنيسة هو محاكمة عالم الفلك الابطالي غاليليو غاليلي[87] بسبب دفاعه عن فكرة دوران الأرض حول الشمس، وهو ما يخالف فكرة مركزية الأرض التي كانا سائدة منذ زمن بطليموس وأرسطو.

تُقدَّم محاكمة غاليلي على أنها عداء بين الدين والعلم، وهذا صحيح جزئيا، لكن الظروف السياسية لعبت دورا في إثارتها، ولم تكن في حقيقتها سوى صراع بين العلم والكهنوت الكنسي الفاسد. فقد ظهرت فكرة دوران الأرض حول الشمس قبل غاليلي مع الراهب الكاثوليكي نيكولاس كوبرنيكوس[88] ورغم أنها كانت مخالفة لما تتبناه الكنيسة إلا أنها لم تثر إشكالا، بل كان هناك فضول من كثير من الرهبان المهتمين بالعلوم للاطلاع على أعمال كوبرنيكوس كم يظهر من مراسلاته مع كاردينال كابوا نيكولاس فون شونبورغ حيث أظهر رغبة شديدة في الاستفادة من أعمال كوبرنيكوس، ولم تجد هذه النظرية الجديدة رفضا في بلاط البابا بولس الثالث.

ومن الطريف أن أول وأشهر من اتهم غاليليو بالهرطقة كان أستاذا للفلسفة وهو كوسيمو بوسكاكليا[89] Cosimo Boscaglia فكان جواب غاليليو أن كوسيمو ليس رياضيا ليفهم نظرياته ولا راهبا ليشرح النصوص المقدسة !

---

[87] غاليليو غاليلي: (1564-1642) عالم فلك وفيلسوف إيطالي. درس الهندسة والفلك والطب ودافع عن نظرية كوبرنيكوس التي تنفي مركزية الأرض.

[88] نيكولاس كوبرنيكوس: (1473-1543) راهب وفيلسوف وعالم رياضيات بولندي. صاغ نظريته التي تقول بمركزية الشمس ودوران الأرض حولها.

[89] كوسيمو بوسكاكليا (1550-1621) أستاذ الفلسفة في جامعة بيزا في إيطاليا، وهو أول شخص عرف بأنه اتهم غاليليو بالهرطقة.

ورغم أن فساد الكنيسة دينيا بسبب التحريف الواقع في الديانة النصرانية واستئثار النظام الكهنوتي بتفسير الدين إلا أن محاكمة غاليليو لم تكن لأسباب دينية محضة بل كان للضغط السياسي فيها دور كبير، خصوصا في سياق الصراع الكاثوليكي البروتستانتي الذي كان على أشده في هذه الفترة.

في هذه الفترة وما بعدها لم يكن بعد قد تشكل الفصل التام بين العلم والدين في أوروبا بشكله الحالي، بل كان للكنائس دور مهم في نقل العلوم المختلفة وترجمتها باعتبارها مراكز المعرفة، وحتى رواد الثورة العلمية لم يكونوا معارضين للدين المسيحي، بل حاولوا التوفيق بين التدين النصراني والعلوم الطبيعية، إسحاق نيوتن الذي أحدث أعماله تغييرا جذريا في الفكر الأوروبي وتعدى تأثير أعماله في الفيزياء حدود العلوم التجريبية ليؤثر على الفلسفة واللاهوت ، ورغم أنه كان مخالفا للعقيدة الكنسية (الثالوث وعبادة المسيح) فلم يكن سبب ذلك منطلقا من أبحاثه الفيزيائية بل بسبب نقده اللاهوتي لكتابات آباء الكنيسة منها كتاب: وصف تاريخي لتحريفين مهمين للكتاب المقدس.

وقبل نيوتن كان الفرنسي ريني ديكارت كاثوليكيا اشتهر بأعماله في الرياضيات والفيزياء ، ورغم أنه كان من ركائز العقلانية في القرن السابع عشر إلا أن ديكارت كان يفصل بين العقل والوحي الديني، ويرى أن للعقل مجال عمله الخاص أما الأمور الغيبية فلا بد فيها من تقديم الوحي على العقل . يقول ديكارت في كتاب مبادئ الفلسفة: (ينبغي أن نرجح المرجعية والحجية الإلهية على إدراكاتنا وهذا في الموضوعات التي يكون لعقلنا وللوحي الالهي كلاهما حكم ورأي فيها، وفي غير هذه الحالة يجب عدم تصديق شيء لا ندركه بوضوح، كل ما أوحى به الله أكثر يقينية من الأشياء الأخرى ويجب أن نسلم لأحكامنا حتى لو عرض علينا العقل الطبيعي شيئا بأعلى درجات الوضوح والدليل يخالف كلام الله، أما في الحالات التي لم توح لنا حجة الله بشيء فلا يجوز للفيلسوف أن يعتبر الشيء حقيقة وهو لم يدرك حقيقته بوضوح وتحقيق)[90].

أفكار هذين العالمين لم تتعارض في حد ذاتها مع الدين النصراني بل دافعا من خلالها عن عقائدهم الدينية. إلا أنها زعزعت فيما بعد كثيرا من العقائد الكنسية وشكّل بعضها أساسا للإلحاد الذي سيظهر بشكل كبير بعدهما ، فنظرية نيوتن عن حركة الأفلاك أسقطت العقيدة اللاهوتية التي تقضي بمركزية الأرض في الكون، وقوانينه الفيزيائية اتخذها آخرون حجة للاستغناء عن وجود الخالق المدبر، كما

[90] رينيه ديكارت- مبادئ الفلسفة ص: 309

اتخذت أساسا للمذاهب الطبيعية والربوبية التي ظهرت عند كثير من الفلاسفة. وساهم مذهب الشك الديكارتي في نشوء كثير من المعتقدات الإلحادية بعد القرن السابع عشر، من خلال توسيعه وسحبه على العقائد الدينية.

في القرن الثامن عشر -عصر التنوير- تأثر كثير من الفلاسفة بأعمال نيوتن وديكارت وبدأ التمرد على الدين الكنسي وظهور ملامح الإلحاد أو على الأقل رفض الدين بشكله الكنسي، كما ساهم العنف الديني والاستبداد السياسي وأعمال بعض الفلاسفة من داخل اللاهوت مثل سبينوزا في ازدياد الرفض العام للكهنوت الكنسي، فظهر قلة من الفلاسفة الملحدين مثل ديدرو ودي هولباخ -كما سبق-، لكن نقد أسس الدين كان منتشرا بقوة بين الفلاسفة فشكلت كتابات ديفيد هيوم مدخلا للإلحاد وإنكار أسس الدين والقول بتاريخيتها.

وفي القرن التاسع عشر تراجع النفوذ الكنسي بشكل كبير واتخذ الالحاد طبيعة علمية ليصبح العلم في مقابل الإيمان، وظهرت نظريات علمية جعلها الملاحدة تقوم مقام الدين في تقديم الأجوبة على الأسئلة الوجودية، فالنظرية التي وضعها داروين عن أصل الكائنات الحية يمكنها تفسير الخلق بعيدا عن التفسير الديني، وتحولت نظريته إلى إديولوجية تتجاوز حدود علم الأحياء. وقرر عالم الاجتماع أوكست كونت أن الدين صار متجاوزا تاريخيا ويمكن للعلم أن يقود البشرية، وظهرت إديولوجيات جديدة مثل الماركسية ترفض الدين ولا تؤمن إلا بالمادة. وتتابعت الفلسفات المعارضة للدين في هذه الفترة ليصل الأمر مع فريديريك نيتشه إلى إعلان موت الإله ! ومع ذلك، ورغم انحسار دور الكهنوت الكنسي، فقد بقي كثير من العلماء يعتنقون عقائد ربوبية أو كنسية لا تنفي وجود الخالق بشكل قطعي.

ومن النماذج الواضحة للصراع المفتعل بين العلم والدين : أزلية الكون، فإلى حدود بداية القرن العشرين كانت إشكالية أزلية الكون في أوروبا فلسفية دينية فالمسيحيون والمتدينون عموما يميلون إلى القولة بوجود بداية للكون تعتمد على الخالق، بينما الملاحدة يقولون بأزلية الكون والمادة التي نشأ عنها.

يقول عالم الرياضيات ديفيد بيرلنسكي[91] : (توجد علاقة بين حقيقة أن للكون بداية وفرضية أن للكون خالقا، وهي علاقة جلية جدا ومتوهجة حتى أنها ترى في الظلام)[92]. سنة 1929م قدم عالم الفلك والكاهن الكاثوليكي جورج لومتر[93] فرضية تقضي بنشوء الكون من «ذرة» أولية ثم بدأ الكون بعدها بالتمدد، ولم تلق هذه الفكرة قبولا في الأوساط الفيزيائية بسبب الاعتقاد المسبق بأن الكون مستقر لا يتمدد، بل دفع هذا الاعتقاد الفيزيائي الشهير ألبرت أينشتاين إلى إضافة الثابت الكوني وتعديل معادلاته كي تتناسب مع مفهوم الكون الثابت المستقر ! وقد علّق أينشتاين على بحث لومتر بقوله : (إن حساباتك صحيحة ولكن فيزيائية ليست واقعية)[94]، وهو ما اعتبره اينشتاين فيما بعد أكبر خطإ وقع فيه بعد أن تم إثبات تمدد الكون من خلال الرصد الفلكي.

ومع هذا فقد استمات كثير من الفيزيائيين في الدفاع أزلية الكون قبل أن تصبح وجود بداية للكون أمرا مقبولا في الأوساط العلمية.

بدت فكرة الانفجار العظيم في البداية كأنها فكرة دينية لذلك وجدت معارضة كبيرة في الاوساط الفيزيائية بسبب النفَس اللاديني الذي نشأت عليه العلوم التجريبية، يختصر عالم الفلك الأمريكي روبرت جاسترو[95] هذا السجال بقوله : (يسعد اللاهوتيون عموما بدليل أن للكون بداية، بينما علماء الفلك مستاؤون، وتعتبر ردود أفعالهم نموذجا مثيرا لاستجابة العقل العلمي، والذي يفترض أنه عقل موضوعي جدا، عندما تؤدي الأدلة المكتشفة بالمنهجية العلمية نفسها إلى تصادم بين بنود الإيمان وحياتنا المهنية (كعلماء تجريبين)، ويبدو أن العالِم يتصرف بنفس الطريقة التي نتصرف بها جميعا عندما يتصادم إيماننا بالأدلة، فإما أن نتزعج أو نتظاهر بعدم وجود تصادم أو نخفيه بعبارات لا معنى لها)[96] .

---

[91] ديفيد بيرلنسكي: (1942) فيلسوف وكاتب أمريكي، عضو في مركز العلوم والثقافة من معهد ديسكفري، ينتقد نظرية التطور ويرفض التنظير بخصوص بداية الحياة وله مؤلفات في الفلسفة التحليلية وفلسفة الرياضيات.

[92] مترجم من كتاب : وهم الشيطان: الإلحاد وحججه العلمية- ديفيد بيرلنسكي.

[93] جورج لومتر: (1894-1966) كاهن كاثوليي وعالم فلك بلجيكي، عمل أستاذا للفلك والفيزياء بالجامعة الكاثوليكية في لوفان، اقترح نشوء الكون من ذرة أولية ثم تمدد الكون بعدها (وهو ما أثبته هابل)، وهذه النظرية هي التي سميت فيما بعد بالانفجار الكبير.

[94] مترجم من كتاب : The Big Bang and Georges Lemaitre: 370 p

[95] روبرت جاسترو: (1925-2008) عالم فلك أمريكي وعالم الفيزياء الكونية، عمل بوكالة ناسا للأبحاث الفضائية وكان أول رئيس للجنة استكشاف القمر بهذه الوكالة، وله مؤلفات

[96] روبرت كاسترو – مترجم من كتاب : (God and the Astronomers)

ويضيف في موضع آخر : (بالنسبة للعالم الذي عاش طوال حياته مؤمنا بقوة العقل تنتهي القصة كالكابوس، فقد تسلق جبال الجهل وكان على مشارف الوصول لأعلى قمته، وعندما همَّ برفع رأسه فوق آخر صخرة رحَّب به جماعة من اللاهوتيين الذي كانوا يجلسون هناك منذ قرون)[97].

ومع هذا الحسم الفيزيائي في مسألة أزلية الكون والانزعاج الكبير الذي خلفه في أوساط الملحدين كما يعبر عنه الفيزيائي الشهير ستيفن هوكينغ: (ثمة أناس كثيرون لا يحبذون فكرة أن الزمن له بداية، وربما كان ذلك لأن فيها مجالا لتدخل ميتافيزيقي، وهكذا كان هناك عدد من المحاولات لتجنب استنتاج أنه كان ثمة انفجار كبير)[98]، إلا أن بعض الفيزيائيين –ومنهم هوكينغ- اتجهوا إلى رفض فكرة الخلق واقتراح فرضيات جديدة في الفيزياء أقرب الى الميتافيزيقا مثل الأكوان الموازية حيث يمكن من خلالها الاستغناء عن الاعتقاد بوجود خالق !

يتم استنساخ هذا الصراع بين العلم والكهنوت الكنسي ونقله إلى الوقع الاسلامي لجعل الإيمان مقابلا للعلم، ومع التخلف الشديد الذي يعاني منه المسلمون اليوم في العلوم المادية يصبح الأمر بين خيارين : إما الإيمان بالدين أو الاحتجاج بالعلم !

والحقيقة أن تاريخ المسلمين لم يعرف هذا الصراع الحاد بين العلم والدين على الطريقة الأوروبية ، بل ازدهرت العلوم في عز الحكم الاسلامي وتم نقل الكتب الأجنبية من مختلف العلوم إلى العربية، ولم يكن الاسلام عائقا أمام المدَنيّة الاسلامية، بل على العكس من ذلك ساهمت العقيدة الاسلامية في تخليص العلوم من الأفكار الخرافية التي اختلطت معها من الحضارات الاخرى . فقد ارتبط علم الفلك –مثلا- بالتنجيم والغيبيات ليتحول عند المسلمين إلى علم قائم على الرصد والحساب، واختلطت الكيمياء بالشعوذة والسحر قبل أن تصبح علما تجريبيا مع جابر بن حيان وغيره، وبرع المسلمون في الطب خاصة فيما يتعلق بالجراحة والصيدلة إلى غير ذلك مما تجلت فيه منهجية المسلمين في البحث العلمي وتقعيده وفق سنن الله الكونية بعيدا عن الخرافات.

---

[97] المصدر السابق.

[98] ستيفن هوكينغ – تاريخ موجز للزمن، ترجمة مصطفى ابراهيم فهمي ص: 52

ورغب الفقهاء في تعلم علوم الحساب والهندسة والطب لعظيم نفعها في الدين والدنيا يقول القرافي :

(وكم يخفى على الفقيه والحاكم الحق في المسائل الكثيرة بسبب الجهل بالحساب و الطب و الهندسة، فينبغي لذوي الهمم العَلية أن لا يتركوا الاطلاع على العلوم ما أمكنهم، فلم أرفي عيوب الناس شيئا كنقص القادرين على التمام)[99].

وأكد الفقه الاسلامي على ضرورة اعتبار العلوم المادية في القضاء والفتوى والرجوع إلى أهل الاختصاص في هذه العلوم ، وذلك بفصل اختصاصات الفقهاء عن غيرهم من علماء الطبيعة والحساب ونحو ذلك، فالفقيه تؤخذ عنه مشروعية الأحكام وإن تعلق وقوع هذه الأحكام بشيء لا يعلمه إلا غيرهم من أهل الطب أو الحساب أوالتجارة فقول هؤلاء هو المرجع، وهكذا تتكامل العلوم الشرعية والعلوم المادية.

يفصل ابن القيم هذه المسألة بوضوح : (الفرق بين دليل مشروعية الحكم وبين دليل وقوع الحكم ، فالأول متوقف على الشارع، والثاني يعلم بالحس أو الخبر أو العادة ، فدليل مشروعية الحكم يرجع فيه إلى أهل العلم بالقرآن والحديث، ودليل وقوع الحكم يرجع فيه إلى أهل الخبرة)[100].

وجمع المسلمون بين الإيمان بربوبية الله عز وجل بتصريفه أمور الكون والقوانين والسنن التي خلقه الله عليها ، دون أن تلغي المعرفة بالأسباب والقوانين وجود الإله الخالق، ودون أن تتفرع بين المسلمون مذاهب ربوبية وطبيعية تستغني عن تدخل الخالق، بل إن تتبع هدايات القرآن تظهر أن القرآن أمر بالتأمل في ملكوت الله وجعل دلالة الخلق على الله فيما يدرك الناس أسبابه وقوانينه، يقول الله عز وجل : (أفرأيتم ما تحرثون أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون)[101]، ويقول الله عز وجل : (وكأين من آية في السماوات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون)[102]. وهكذا فلا يتعارض في عقل المسلم العلم بأسباب الوقائع الطبيعية من زلازل وأعاصير وبين كونها عقابا لقوم ونحو ذلك، ولا يتنافى العلم بمواقيت الكسوف وأحداث الفلك مع استئثار الله بعلم الغيب، يقول ابن رشد الجد : (ليس في معرفة وقت الكسوف بما ذكرناه

[99] شهاب الدين القرافي – الفروق –دار الكتب العلمية، الجزء الرابع ص: 31

[100] ابن القيم، بدائع الفوائد

[101] سورة الواقعة الآيتان 63 - 64

[102] سورة يوسف الآية 105

من جهة النجوم وطريق الحساب إدعاء علم غيب ولا ضلالة وكفر على وجه من الوجوه)[103].

ويقول ابن تيمية : (فإذا كان الكسوف له أجل مسمى لم يناف ذلك أن يكون عند أجله يجعله الله سببا لما يقضيه من عذاب لمن يعذب الله في ذلك الوقت، كما أن تعذيب الله لمن عذبه بالريح الشديدة الباردة كقوم عاد كانت في الوقت المناسب وهو آخر الشتاء كما قد ذكر ذلك أهل التفسير وقصص الأنبياء)[104].

4)-تفكيك الدين من داخل النسق الديني :

ظهر نقد الدين في أوروبا بشكل مبكر رغم الهيمنة الكنسية، وبدأ في شكل دعوات للإصلاح الديني تنتقد سلطة البابا حيث انتقد جون ويكليف[105] في القرن الرابع عشر سلطة البابا ودعا إلى إعلاء سلطة الكتاب المقدس على السلطات البشرية، وبعده اتهم جون هس[106] الكنيسة بالانحراف عن تعاليم المسيح ورغم القبول الشعبي الذي لقيته دعوته فقد غدرت به الكنيسة الكاثوليكية وقامت بحرقه بعد أن أعطته الأمان ! وفي القرن السادس عشر ظهر مارتن لوثر[107] ثائرا على سلطة الكنيسة ومنتقدا لكهنوتها ورفض وصاية البابا على تفسير تعاليم الكتاب المقدس، فظهر بذلك مذهب جديد عرف باسم البروتستانتية، مما فتح بابا جديدا لإعادة النظر في التعاليم الكنسية التي كانت سائدة. لكن أبرز شخصية أثرت في تاريخ النقد الديني في أوروبا هو اليهودي الهولندي باروخ سبينوزا الذي طوّر فلسفة ديكارت وسحبها إلى أماكن لم يقترب منها ديكارت، ومهّد لنقد النصوص الدينية ووضع أسس تفكيكها، وعمل على دراسة الكتاب المقدس وقدم رؤيته حول الوجود الإلهي والنبوات والوحي.

---

[103] ابن رشد الجد – المقدمات الممهدات لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعيات- الجزء الثاني ص: 458، دار الكتب العلمية.

[104] ابن تيمية – الفتاوى الكبرى - فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية المجلد الأول، ص: 65، دار الكتب العلمية.

[105] جون ويكليف: (1384-1328) إصلاحي مسيحي، عمل مستشارا لملك انجلترا ورفض سلطة البابا المطلقة، ترجم الكتاب المقدس إلى الانجليزية الدارجة، فأحرقت كتبه بأمر من البابا.

[106] جون هس: (1415-1372) مفكر ديني واصلاحي مسيحي تشيكي، قاد حركة إصلاح في الكنيسة فاتهمته الكنيسة الكاثوليكية بالزندقة وأعطته الأمان ثم غدرت به وأحرق

[107] مارتن لوثر: (1546-1483) راهب ألماني، وأستاذ اللاهوت، بدأ عصر الاصلاح في أوروبا بعد اعتراضه على صكوك الغفران التي كانت تبيعها الكنيسة، ودعا الى تحرير فهم الكتاب المقدس من سلطة البابا والمجامع الكنسية.

في هذا المسلك اللاهوتي يظهر حسن حنفي مقلد سبينوزا في نقده للكتب المقدسة ومستنسخا النقد اللاهوتي الاوروبي، فيرى أن الوحي لا يمكن أن يضيف للإنسان شيئا يعجز عن الوصول إليه بعقله، وحتى إن كان الوحي ضرورة في وقت مضى فالانسان اليوم مستغن عنه !

هنا يضع حسن حنفي النتائج التي وصل إليها سبينوزا عن طريق دراسته لأسفار اليهود وكتب النصارى ويلتمس لها مقدمات غير موجودة عند المسلمين.

يقرر سبينوزا أن الشرائع في الأسفار اليهودية كانت خاصة بالعبرانيين من خلال تتبعه نصوص اليهود، فيلتقط حنفي هذه الفكرة ويسقطها على الشريعة الاسلامية ليقرر أن الشرائع الاسلامية خاصة بالقرشيين الأوائل ممن شهدوا نزول القرآن، وبالتالي فلا ينبغي أن تتعدى الشرائع إلى من سواهم، مع أن أي قارئ للقرآن يدرك عالمية الشريعة الاسلامية في النص القرآني خلافا لما وقف عليه سبينوزا في أسفار اليهود المحرفة.

ويصل سبينوزا من خلال عمله على مقارنة أسفار اليهود المختلفة إلى أن النص الأصلي مفقود أو محرف، لكن حنفي يأخذ هذه النتيجة وما ترتب عنها فيسقطها على القرآن دون أدنى دراسة للنص القرآني وتاريخ تدوينه ! وينقل لنا حنفي القول ببشرية الأديان والكتب المقدسة من الواقع الأوروبي إلى الواقع الاسلامي دون أدنى دراسة للنص القرآني!

ويقرر حنفي على نهج سبينوزا التخلي عن الايمان بمعجزات الانبياء، باعتبارها خرقا لقوانين الطبيعة وهو أمر مستحيل لأن هذه القوانين وجدت ليستقيم بها الكون، وهكذا يحاول أن يقدم الإيمان بالمعجزات على أنه قدح في حكمة الله عز وجل ! ثم يقدم نفس المسوغات ويعتبر الخيال البشري يلعب دورا في دخول هذه الأمور للكتابات المقدسة، بل ينسب الوحي نفسه إلى الخيالات ونفسيات الانبياء !

وعندما يدرك حسن حنفي أن العبادات وتفاصيل كثيرة من الشرائع لا يمكن الوصول إليها من غير نبوة ولا رسالة، يقلب الأمور رأسا على عقب ويستخدم نفس الاسلوب السبينوزي السابق، ويرى أنه إذا لم يمكننا الوصول إلى تفاصيل هذه الشرائع عن طريق العقل فهي غير عقلانية وتناقض جوهر الدين! وهكذا يكون قد تخلص من الشريعة كلها.

ويسترسل في الترويج لمذهبه الانسي المتكئ على اللاهوت الطبيعي مع الاحتفاظ بالمفاهيم الشرعية وتفريغها من محتواها، فبعد أن جعل االإنسان أو العقيدة الثورية هي الله، انتقل ليجعل مفهوم ختم النبوة دليلا على استقلال البشر عن الوحي بعد أن وضع الوحي البشرية على السكة الصحيحة، وهنا تنقلب الأمور فالرسالة الخاتمة التي يفهم منها المسلمون هيمنتها على كل الشرائع السابقة ما يجعلها محكمة وغير قابلة للنسخ، يجعلها حسن حنفي مدخلا لإلغاء الحاجة للوحي!

وهو في كل هذا ليس بدعا من المفكرين التنويريين، بل أدرجته مثالا لتعلق أعماله مباشرة بأعمال سبينوزا ترجمة وشرحا وتأليفا ، وإلا فإن غالب دعاة التنوير الالحادي يسيرون على نفس النهج.

من التدين الفردي إلى الالحاد الاسلامي

عندما نختزل الإسلام إلى حالة الدين الحروالفردي، أي بفرض قوانيننا في البلدان الإسلامية فإنه سوف يهلك

-الفيلسوف الفرنسي إرنست رينان-

1)-الإلحاد والانتساب الثقافي للأديان:

عندما نتأمل لفظة الالحاد الاسلامي فإننا نجد فيها تناقضا ظاهرا وتنافرا واضحا بين ألفاظها إذ لا يمكن أن يجتمع الالحاد مع الدين عموما فكيف يمكن أن يجتمع مع الاسلام! لكن واقع الحال في البلدان الغربية يوضح أنهم وصلوا إلى حالة أصبح فيها استعمال مصطلح «المسيحي الملحد» و»اليهودي الملحد» أمرا عاديا، يتعلق الأمر هنا بفئات واسعة لا تؤمن بوجود الله لكنها تفضل الامتثال للتعاليم الأخلاقية المسيحية أو تنتسب ثقافيا إلى المسيحية دون أن تؤمن بعقيدة النصارى أو تلتزم شرائعهم .

ففي هولندا مثلا يقدم 42 في المئة من البروتستانت أنفسهم ملحدين لا يؤمنون بوجود الله، و27 في المئة من الكاثوليك فقط يؤمنون بوجود الله، أما 73 في المئة الباقية فيتوزعون إلى ربوبيين ولا أدريين وملحدين.

وفي أمريكا تنخفض نسبة المسيحيين الملاحدة إلى 4 في المئة فقط من اا البروتستانت[108].

هذه الإحصائيات تعبر عن ظاهرة منتشرة في الغرب تتميز بالازدواجية بين الإلحاد والاحتفاظ بالانتماء الثقافي للديانة المسيحية، ونجد نفس الظاهرة في اليهودية بسبب طبيعتها العرقية إذ تثبت صفة اليهودية بالانتساب للأم اليهودية فقط. كيف وصل الأوروبيون إلى هذه الظاهرة ؟

لا شك أن الإصلاح البروتستانتي ومعارك التنوير مع لاهوت الخرافة المسيحي قد أدى إلى خلخلة الايمان بالتعاليم المسيحية بعد عرضها على محك النقد.

كان من بين أبرز الأفكار التي دعا إليها مارتن لوثر في ألمانيا حرية تفسير الكتاب المقدس لتحريره من سلطة رجال الدين الذين كانوا يتلاعبون به لصالحهم، هذه الحرية في تفسير الكتاب المقدس أنتجت فوضى تأويلية عند البروتستانت أنفسهم ما دفعهم إلى البحث عن معايير لتقييد هذه التأويلات.

---

[108] إحصائيات موقع هاريس أنتراكتيف التفاعلي (Harris Poll) بتاريخ أكتوبر 2003. وهي شركة متخصصة في جمع وتسجيل وتحليل المعطيات والبيانات.
والهدف من سرد الاحصائية ليس تدقيق الأرقام ولكن الإشارة فقط إلى ظاهرة منتشرة في المجتمع الغربي تتميز بالمزاوجة بين الالحاد والانتماء الثقافي للدين.

ينقل أركون هذه الفكرة إلى المجتمع المسلم بقوله : (إن القراءة التي أحلم بها هي قراءة حرة إلى درجة التشرُّد والتسَكُّع في كل الاتجاهات، إنها قراءة تجد فيها كلَّ ذات بشريَّة نفسها)[109]، وهكذا يصبح المعنى في النص الشرعي هو اللامعنى، ويمكن تأويل النص بما يناقضه دون إشكال فالأمر راجع فقط إلى الذوق الفردي.

وهكذا تنشأ أجيال من الشباب تعتمد أنماطا خاصة من التدين وفق رؤى مختلفة ومتعددة، ولا يجمعها شيء غير أنها تخالف جوهر الإسلام الذي عرفه المسلمون منذ قرون، وينشأ نوع من التشرد الفكري والسيولة الدينية لا يُعرف لها أصول تعتمد عليها ولا ركائز تبنى عليها، بل غاية ما تقدمه حفاظ على الصورة العامة للإسلام مع انغماس تام في كل مخرجات الحداثة الغربية.

2)-من أين يبدأ التدين الفردي ؟

كما كانت الثورة الفكرية البروتستانتية مسايرة لروح الرأسمالية[110] فإن الأنماط الجديدة للتدين الفردي أُنتجت لتساير فكرة العولمة وتحصر التميز الثقافي في زاوية التدين الفردي بعيدا عن المجال العام في المجتمع الاسلامي.

من حيث الاعتقاد تقوم الفكرة الأساس للتدين الفردي على أن الإيمان تجربة شخصية تتميز بالفردانية فهي تبنى على الاكتشاف لا على التعلم والاقتداء، ويبدأ الأمر بإسقاط كل المرجعيات وإنشاء تدين هلامي بدون ملامح يزعم أنه متحرر من التراث بل يعارضه، وهنا نجد أنواعا من الاستخفاف بالكتب الفقهية ودواوين السنة وميوعة في تفسير النص القرآني، بل واستحداث فهوم متعسفة تسير في ركب الأفكار الوافدة. يتكئ الفرد هنا على نسبية الحقيقة لينسف كل المعتقدات جملة، وينشئ لنفسه ما يعتقده تدينا خاصا وهو ليس في الحقيقة إلا مسايرة للنسق العام المابعد حداثي الذي يتسم بفوضى المعتقدات.

أما من حيث السلوك فيتقدم هنا إسلام السوق[111] ليفرض نفسه وتظهر أشكال مختلفة من التدين بدء من التدين العقلاني الموغل في صياغة الدين وفق التقدم العلمي إلى التدين الروحاني المولع بالفن والأدب.

---

[109] محمد أركون تاريخية الفكر العربي الاسلامي ص: 145

[110] عنوان كتاب لعالم الاجتماع الالماني ماكس فايبر.

[111] عنوان كتاب لباتريك هايني

في النوع الأول يمكن أن نقدم الدكتور محمد شحرور نموذجا، فهو يتميز بالتفرد بنمطه الخاص للتفسير ويحاول به أن يساير التقدم العلمي، نمط يتميز بالعشوائية المفرطة مما يفتح المجال أمام ظهور المزيد من التأويلات والتفسيرات التي لا حصر لها ...، ويفتح شحرور من خلال قراءته الفوضوية للقرآن باب صناعة الدين أمام الفرد بقوله : (الحلال تابع لذوق المجتمع والشخص والقانون، لا يحتاج إلى بيّنات)[112]، وينسى شحرور أنه بإقحامه القانون والمجتمع في تحديد الحلال من الحرام يخرجه عن كونه خاصا بالفرد، فغاية ما فعله هنا هو نقل التشريع من حاكمية الوحي إلى حاكمية البشر.

ويقوم منهجه في التفسير والاستنباط على استبعاد كل كتب الحديث والفقه والتسلح بمعاجم اللغة لتأويل القرآن وتحريف معانيه ليساير ما يحدده شحرور من أفكار مسبقا، مما يجعل الرجل يأتي بتفاسير مضحكة وتأويلات غرائبية لا يتصور صدورها من شخص عاقل فضلا عن باحث ومفكر اسلامي !

ومن تفسيراته الغريبة تفسيره لفواتح سورة الفجر: (وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ)[113]، فجعل معنى (الفجر) هنا الانفجار الكوني العظيم متعلقا بالجذر اللغوي، وفسر الليالي العشر بمراحل عشرة مر منها نشوء الكون قبل ظهور الاوكسجين، وفسر الشفع والوتر بالهيدروجين! بدعوى أن نواته تتكون من بروتون ونترون مع إلكترون واحد حولهما[114]. ولا يخفى ما في هذا التأويل من تكلف وتعسف شديدين لدرجة أن لا أحد يمكن أن يدركه إذا استثنينا شحرورا !

ويظهر أيضا الدكتور عدنان ابراهيم في محاولة توفيقية بين الاكتشافات العلمية الحديثة وبين الاسلام، فمما يلاحظ في خطبه الاكثار تفسير النظريات العلمية (فيزياء الكوانطا، النظرة النسبية، نظرية التطور، نظريات علم النفس وغيرها ...) ومحاولة ملاءمتها مع التصورات الشرعية، مع تسلح مفرط بالاصطلاحات الغربية و النظريات العلمية واستعمال كثيف لأسماء غربية رنانة لتقوية خطابه الإعلامي.

أما النموذج الثاني فيظهر هنا أتباع «مولانا جلال الدين الرومي» نموذجا واضحا للتدين الروحاني المتحرر، وليس القصد هنا الأتباع بالمعنى الطرقي الصوفي المعروف

---

[112] مقتطف من فيديو لمحمد شحرور على قناة أبوظبي.

[113] سورة الفجر الآيات : 1 و2 و3 و4

[114] من حلقات برنامج النبأ العظيم على قناة الخليجية.

عند الدراويش، وإنما نشير هنا إلى موجة من الاهتمام بجلال الدين الرومي باعتباره شخصية متحررة من القيود التقليدية وتقدم تديُّنا رومانسيا ومتسامحا تنصب جل اهتماماته على الشوق والفراق والحب والألم، بعيدا عن القوالب التقليدية للتدين، الأمر هنا نوع من البحث عن التجديد والتميز الفردي.

لكن الغريب أن هذا الاهتمام الحديث بشخصية من التراث الاسلامي جاء على أنغام الموسيقى الأمريكية (الروك أند رول)، فبعد أن ترجم كولمان باركس[115] قصائد الرومي تحولت إلى مقاطع غنائية من أداء مشاهير الغناء الأمريكي: مادونا، وغولدي هاون، وديمي مور....، وهكذا ظهر عند بعض الشباب هذا النوع من التدين الفردي الذي لا يلغي الدين تماما بل يحتفظ بهيكله العام مع انخراط تام في سياق الحداثة وما بعدها.

وقبل هذا كان هناك اهتمام استشراقي كبير بتراث جلال الدين الرومي من خلال دراسات المستشرقين للتراث الفارسي والتصوف أمثال: رينولد نيكلسون[116] وآرثر آربري[117] ، ثم ازداد الاهتمام أكثر مع موجة الصدام بين الاسلام والغرب في إطار الحرب على الارهاب إذ تم بعث تصوف جلال الدين الرومي باعتباره يمثل الاسلام المتسامح الذي يقبل الآخر ويعلي من القيم الروحانية والتقارب بين الاديان، وبصورة أوضح هو نموذج تراثي يمكنه مواجهة أفكار الجهاد وتفكيكها ومنع انتشار الأفكار المتمردة على الهيمنة الأمريكية وإحلال الجهاد الروحاني والتسامح الصوفي محلها.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذا النوع من التدين الفردي ينزع إلى الفكر الليبرالي الذي يعتبر حاضنة له، بينما نجد تيار «اليسار الاسلامي» في تنافر شديد معه فهو يراه عقبة أمام التغيير ، فقيم التصوف تؤدي إلى الخنوع والخضوع بدلا من الثورة والتغيير الذي ينشده اليسار.

---

[115] كولمان باركس: شاعر أمريكي ولد سنة 1937، عرف بترجمته لشعر جلال الدين الرومي، حصل على شهادة الدكتوراه الفخرية من جامعة طهران.

[116] رينولد نيكلسون: (1868-1945) مستشرق إنكليزي، تخصص في التصوف و الأدب الفارسي ويعتبر من أشهر المترجمين لشعر جلال الدين الرومي.

[117] آرثر آربري: (1905-1969) مستشرق بريطاني متخصص في التصوّف والأدب الفارسي، وهو من تلامذة المستشرق رينولد نيكلسون.

3)-أسباب النزوح نحو التدين الفردي :

لعل للأمر أسبابا كثيرة ومتشعبة لكن لا بد من الاشارة لبعضها اختصارا، ولعل أول ما يجعل التدين فرديا هو ارتباطه بقيم غربية تشجع على الفردانية وتعلي من شأن الفرد، وتدعو لنسبية الحقيقة، ومن هنا يمكن أن نفهم الاصرار على أن الدين شأن خاص تماشيا مع فكرة علمانية الدولة. وفي واقعنا اليوم يمكن اختصار هذه الأسباب في ما يلي :

-التخلف الحضاري الذي يعانيه المسلمون اليوم في مختلف المجالات اقتصاديا وعسكريا وعلميا، مما يجعل طيفا كبيرا من الشباب يقع ضحية المقارنة بين الواقع الغربي وواقع المجتمعات المسلمة ويرتب عليه مقارنات في عمق المنظومتين الفكريتين وحتى في الرؤى الوجودية، فيجعل الاسلام -أو على الأقل ما يراه نسخة تقليدية منه- سببا في هذا التخلف.

-الاستبداد باسم الشريعة : أما السبب المتعلق بواقع العالم الاسلامي فيتميز بفقدان الثقة في المنظومة التقليدية (الدعاة، الفقهاء، المؤسسات الدينية الرسمية...) ، إما بسبب حملات التشويه المتعمد، أو بسبب انحياز طائفة كبيرة من هؤلاء للأنظمة السياسية سواء تعلق الأمر بالصوفية الطرقية أو السلفية الموالية للحكام أو بالمؤسسات الرسمية التي تعمل الدول من خلالها على تأميم الدين.

هذا التناغم مع جو الاستبداد جعل السخط على الواقع الاجتماعي والاقتصادي سخطا على هذه الفئة التي تستظل بالاستبداد السياسي، وخير مثال على هذا ما حدث بعد موجات الربيع العربي حيث أعطت دفعة قوية في النزوع نحو أنماط التدين الفردي والبحث عن مرجعيات دينية جديدة وغير اعتيادية.

-نكسة تيارات الاسلام السياسي: لم تستطع تيارات الاسلام السياسي بعد الربيع العربي الوصول إلى تحقيق ما كانت تنظِّر له طوال عقود واصطدمت بواقع عصي على التغيير، سواء بسبب تجذر الفساد وهيكليته في الدول العربية أو بسبب سوء تقدير الواقع من هذه التيارات نفسها.

وأيا كانت أسباب هذا الفشل فإنه بالتأكيد قد أثر على قطاع واسع من الشباب فجعله يتخلى عن الفكرة التنظيمية ويتبنى رؤية فردية، إضافة لهذا فإن انخراط هذه التيارات في العمل السياسي واستنزافها لطاقات كثيرة في هذا الجانب خلق قصورا في الجانب

الدعوي، فتضخمت السياسة على حساب الدين، وانزوى الدين في هذه التيارات في حيز ضيق لا يتعدى الهوية العامة، فصار البحث عن التدين عند الشباب يتم خارج إطار التنظيم.

-ضغط العولمة وما تحمله من قيم يصعب ملاءمتها من الاسلام، فبينما تطلق الحضارة الغربية الحرية للفرد في الانغماس في الشهوات، يقيد الدين هذه الشهوات ويوجهها، مما يخلق صراعا يؤدي الى انتصار الانسياق وراء الشهوات مع ضعف الحصانة الفكرية والعقدية.

بالإضافة إلى هذا يظهر جليا زخم الأفكار الواردة وبأساليب حديثة تجعلها أكثر قابلية للانتشار ، بينما تتوارى المعالجة الشرعية لهذه الافكار الشاذة في بطون كتب لا يكاد يقرؤها أحد أو تحاول معالجتها بأساليب من عصر آخر، ويمكننا أن نلاحظ الفرق بين التأثر بأفكار كثير من الكُتاب مثل محمد أركون وعبدالمجيد الشرفي وبين الموجة الشبابية التي ترافق خطب عدنان ابراهيم، مع أن الأولين يحاولان تقديم فكر ممنهج في نقد الدين بذلوا فيه مجهودا كبيرا، بينما يقدم عدنان ابراهيم شتات فكر في قالب عاطفي ثوري .

4)-إطلالة على نموذج من نماذج الالحاد الاسلامي:

لفهم المقصود بالتدين الفردي نقوم بإطلالة سريعة على مفهوم (التدين العاقل)[118] لدى المفكر المغربي سعيد ناشيد الذي وضع فيه تصوره للتدين الذي لا يتناقض مع العقل أو اختصارا –كما سنرى- : تدين لا يختلف عن الإلحاد في شيء !

يبدأ ناشيد برفع شعار «لا ثوابت في الدين» وهو شعار فضفاض يجعل هذا الدين غير موجود أصلا، إذ لا يعقل أن يكون هناك دين أو فكر بغير ثوابت[119].

يشكك ناشيد في أول أركان الاسلام : الشهادتان، ويرى أن الشهادة تقتصر على كلمة (لا إله إلا الله)، ويدعي أن شهادة أن (محمدا رسول الله) كرست في بعض مراحل تطور الخطاب الديني دون أن يحددها، ويزعم أن هذا شوش على جوهر التوحيد الربوبي الذي جاء به الاسلام! ثم يجعل كل كلامه افتراضات واحتمالات: (ربما في لحظة من

---

[118] للكاتب كتاب يحمل نفس العنوان: دليل التدين العاقل

[119] انظر فكرة الألوهية عند ناشيد في «العودة إلى الوثنية» من هذا الكتاب

لحظات تاريخ الاسلام انتقلت الشهادة من التوحيد «لا إله إلا الله»، إلى التثنية بإضافة «محمد رسول الله»»، لسنا نملك من الوثائق التاريخية ما يكفي لكي نحسم القول في الصيغة الأصلية للأذان)[120]، ولسنا ندري عن أي وثائق يتحدث ناشيد، وكتب الحديث مملوءة بصيغ الأذان في العهد النبوي !

حتى الاعتقاد بوجود الله –عند ناشيد- ليس حقيقة مطلقة، والوحي ليس سوى خيالات تخضع لأمزجة الأنبياء !

والقرآن ليس من كلام الله عزوجل بل هو من كتابة النبي صلى الله عليه وسلم كما تخيل الوحي! ويمضي على طريق التلفيق واللعب على الحبلين ساردا فكرة لا خطام لها ولا زمام، يسعى من خلالها للقول ببشرية القرآن مع الاحتفاظ بشعرة تربطه بالوحي فيؤكد أن الوحي رباني، لكن القرآن بشري : (القرآن الكريم خطاب لغوي وبشري للوحي الرباني، خطاب أنجزه الرسول عبر قوته التخييلية، وانطلاقا من ثقافته وبيئته ولغته وشخصيته)[121].

ثم يفتح باب التلاعب بالإسلام باستدلالات غريبة، فما دام يمكن للمسلمين أن يجتهدوا في وضع التقويم الهجري ونقط المصحف فما المانع أن يجتهدوا في هذه العقائد ليفهموها بما يوافق العصر -أو بالأحرى ما يوافق الثقافة الغربية- ! وبعد أن يجحد كل العقائد ابتداء يشرع في وضع أفكار لا تستقيم في ميزان العقل ولا الشرع، يشرع في تكييف النص القرآني مع ما يريده، فأحكام القرآن حسب ناشيد نسبية تتعلق بسياق التنزيل وأسباب النزول ولا تتعدى لغير من شهدها، وكل ما يهمنا من القرآن هو القيم الوجدانية الكلية، من قبيل «العفو عن الناس»، و«كظم الغيظ»، و«المجادلة بالحسنى» و«العِشْرة بالمعروف» والتي يزعم زورا أن الموروث الفقهي قد أغفلها، وهو هنا يعيد وضع عقيدة سبينوزا في السياق الاسلامي : (أؤكد بسهولة أن أقوال الأنبياء لا يكون لها وزنها إلا على مسلك الناس في الحياة والفضائل الخلقية، وفيما عدا ذلك لا تهمنا معتقداتهم الخاصة)[122].

لا ينسى ناشيد الاستدلال لفكرته من العهد النبوي فيقترح نظرية –لم يُسبق إليها- تقول أن آيات الجهاد مثلا إنما نزلت قبل فتح مكة لتستنفر المسلمين لتحريرها، وبعد الفتح لم يعد هناك جهاد وكل ما يخالف ذلك إنما هو من وضع الفقهاء، ولهذا لم تنزل

[120] الحداثة والقرآن – سعيد ناشيد ص: 164

[121] الحداثة والقرآن- سعيد ناشيد –ص: 43 – التنوير للطباعة والنشر والتوزيع

[122] سبينوزا- رسالة في اللاهوت والسياسة – ترجمة حسن حنفي – ص: 115

آيات الجهاد بعد فتح مكة.

إن من يطلع اطلاعا يسيرا على أحداث السيرة النبوية أو يفتح القرآن ليقرأ منه يدرك بطلان هذه الفكرة الساذجة، فقد نزلت سورة التوبة بعد الفتح عن غزو تبوك التي لم يكن لها علاقة بمكة بل كانت وجهة المسلمين فيها نحو الشام، وجاء فيها ذكر غزوة حنين التي هي قطعا بعد فتح مكة ! وهي كذلك أكثر السور حثا على الجهاد في القرآن الكريم.

ينتقل ناشيد إلى القول بأن الشعائر الاسلامية تطوعية ما دام لا يتعلق بها جزاء دنيوي، ويستدل للأمر بآيات الصيام وتختلط عنده الرخصة بالعزيمة، ليخلص إلى أن الصيام تطوعي بنص القرآن ويتناسى وضوح الآية القرآنية : (ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم)، فهل هناك شخص يفهم العربية يمكن أن يقول أن قوله تعالى: (كتب عليكم) تفيد أن الصيام في الاسلام تطوعي! هذه السطحية في تناول المسائل الشرعية تظهر كثيرا من خلال تناوله لكثير من المباحث انتهت بالكاتب إلى صنع دين لا علاقة له بالإسلام الذي نزل به القرآن، بل كل ما فعله (الملحد المسلم) هو استصدار نسخة إلحادية بنكهة دينية !

الإلحاد والتنوير معالم مشتركة

الإلحاد هو المعنى الأصلي للإيمان لا المعنى المضاد

-حسن حنفي-

1)-أنسنة الإله وتأليه الإنسان :

كان لا بد من البدء من هذه النقطة التي تعتبر الشعرة التي لا زالت تفصل تيار التنوير الذي نحن بصدده عن الإلحاد الصريح بمعناه المعاصر .

وكما أسلفنا في تقديم تيارات التنوير فإن الملحد الصريح يطابق تيار التنوير الملحد من غير خلاف وإن احتفظ لنفسه بوصف «المسلم» تعبيرا عن الانتماء الثقافي للبيئة الشرقية.

وخير نموذج نقدمه لهذه الفئة هو المفكر السوري صادق جلال العظم الذي لا يخفي إلحاده ويعلن صراحة إنكاره للأديان بما فيها الاسلام، واعتناقه للمادية الماركسية، وفي ذلك ألف كتابه «نقد الفكر الديني» وجعل الأديان كلها نوعا من الأساطير والخرافات !

ومثله في هذا أدونيس الذي يعتبر أن مشكلة الحضارة العربية هو ارتباطها بالله، وتدخل الوحي في تدبير حياة الإنسان، فلا جرم أن نجد أدونيس محاربا شرسا لهذه العقيدة الاسلامية مدافعا عن إلحاده، متبنيا عقيدة الملحد العدمي نيتشه ومستعينا بخلفيته العقائدية الباطنية.

وعلى نفس النهج يسير المفكر التونسي محمد المزوغي ويعلن إلحاده الصريح من غير لف ولا دوران في كتابه «تحقيق ما للإلحاد من مقولة». ليس الأمر هنا إلا ترديدا للتصورات الفكر الغربي عن الله ثم إحلالها مكان العقيدة الاسلامية، فقد لا زمت التاريخية تصوراتهم في نقد اللاهوت المسيحي، فالإله ليس عندهم سوى انتاجا بشريا لتفسير ما هو مجهول من الظواهر الطبيعية والنفسية والاجتماعية كما يرى شوبنهاور[123]، أو انعكاسا لحاجات اللاوعي البشري كما يقول فرويد[124]، أو هو تعبير عن الضعف كما يرى ماركس، وهو عند أصحاب النزعة العلموية ليس إلا إلها للفجوات يستحضره الإنسان ليستر جهله! ولا بد من الإشارة هنا إلى أن استعمال اسم «الله» في كتابات هؤلاء ليس إقرارا بوجوده وإنما هو -كما يقولون- محاولة منهم لتفكيك الفكر الديني من داخل المنظومة الدينية، كما يقرر العظم نفسه عند الكلام عن قصة إبليس فهو في كلامه عن

---

[123] أرثر شوبهاور: (1860-1788) فيلسوف ألماني معروف بفلسفته التشاؤمية، فما يراه بالحياة ما هو إلا شر مطلق، فأثر ذلك على حياته لتصبح كتلة من الكآبة والوحدة، له مؤلفات منا : العالم إرادة وتصور.

[124] سبقت ترجمته

الله والملائكة وغيرها من الغيبيات يتناولها (باعتبارها شخصية ميثولوجية أبدعتها ملكة الإنسان الخرافية، وطورها وضخمها خياله الخصب)[125].

وخلافا لهذا النموذج الذي يتسم بالوضوح في تصوراته والذي لن نتوقف عنده كثيرا، فإننا نجد نماذج أخرى تلتف في هذه المسألة التفافا غريبا وتعتمد مماحكات لفظية عجيبة لإنكار معتقد المسلم في وجود الله عز وجل وأحيانا تلجأ لاستعارة مفاهيم مسيحية أوفلسفية عن الإله وتتسلح بها في مواجهة فكرية على أرضية مسلمة لا علاقة لها بتلك المعتقدات.

بعد أن يُخضع محمد أركون كل النصوص الشرعية لمبدإ التاريخية أو التقادم بمعنى أقل لباقة، يقرر أنه لا يمكن استثناء الله عزوجل من هذه التاريخية : (على عكس المسلَّمة التقليدية التي تفترض وجود إله متعال ثابت لا يتغير، فإن مفهوم الله لا ينجو من ضغط التاريخية وتأثيرها أقصد أنه خاضع للتحول والتغيير بتغير العصور والأزمان)[126].

وما دام الله عنده قابلا للتغيّر –تعالى الله عما يقول الظالمون- فيمكن أن نجعل أي شيء إلها، يرجع الأمرفقط إلى حاجاتنا ورغباتنا، يسيرأركون هنا في اتجاه تحويل الكون ليرتكز حول الإنسان بعيدا عن تكاليف الوحي أوبتعبيرآخر : التحرر من سلطة السماء.

يذهب حسن حنفي بعيدا ويجتر الفكرة النتشوية عن «موت الإله»، فلا يبقى إلا أن يسترد الإنسان مكانته في الكون والتي نزعها عنه ظهور الوحي والنبوات، وهنا يجعل حسن حنفي الإنسان إلها ، ويقرر أن (الذات الإلهية هي الذات الإنسانية في أكمل صورها)[127]، وهي نفس عبارة سبينوزا : (الله هو الكل، والكل هو الله)، هذا الكفر البواح يقدمه الرجل معتبرا نفسه فقيها من فقهاء المسلمين يجدد لهم أمر دينهم! ولا يخرج كثيرمن التنويريين العرب عن هاذين التوجهين : الإلحاد الصريح المتأثربالمادية أو الإلحاد المتستر بنزعات الأنسنة، وكلا التوجهين يخلص إلى إنكاروجود الله عزوجل حسب التصور الاسلامي ويستحيل أن يوافق العقيدة الاسلامية، إلا أن نزعة الأنسنة تتجنب المواجهة المباشرة وتلجأ إلى الاستعارات الرمزية ، وأحيانا تتوغل في استخدام المفاهيم الشرعية وتعمل على تغليفها بنزعة الأنسنة، فالأنسنة من داخل المنظور

---

[125] نقد الفكر الديني- صادق جلال العظم ص:57

[126] الفكر الاسلامي قراءة علمية – محمد أركون ص: 102

[127] من العقيدة إلى الثورة – حسن حنفي مجلد2 ص: 588

الاسلامي تتجلى في تكريم الإنسان في القرآن واستخلافه في الارض، هذا الاستخلاف الذي يجب أن يكون تامًّا يمنح السيادة للإنسان بعيد عن تقييدات الفقهاء أو ما يسميه هؤلاء باللاهوت الاسلامي، وهكذا يتم إعادة انتاج هذه النزعة الاوروبية الالحادية بآليات تبدو في ظاهرها اسلامية !

2)- تكذيب الوحي والنبوات :

لاشك أن الكلام هنا يفترض أن يكون عن فئة من التنويريين تثبت وجود شكل من أشكال الألوهية (الربوبية)، أما غلاة المادية ممن ينكرون وجود الله عز وجل فيلزم من معتقدهم هذا إنكار النبوات والوحي واليوم الآخر وكل الغيبيات.

ننطلق هنا من فلسفة اللاهوت الطبيعي التي ظهرت في أوروبا خلال القرنيين السابع عشر والثامن عشر مع موجه الاعلاء من مكانة العقل البشري في مواجهة اللاهوت الكنسي، ومحور هذه الفلسفة هو قدرة الانسان من خلال إعمال العقل في الطبيعة على الوصول إلى الوجود الإلهي دون الحاجة إلى الوحي، إذ يمكن للعقل أن يثبت وجود الله (الربوبية)، ويمكنه إثبات حدوث الخلق، ويمكنه أيضا إثبات خلود النفس (المعاد). إنها بتعبير كنسي ساخر : مسيحية بلا نبي ولا إنجيل !

إنها مرتبة وسطى بين اللاهوت الديني الذي كان مهيمنا على العقل الغربي في أوروبا وبين الإلحاد المادي الذي انتهى إليه في القرن التاسع عشر .

هذه التجربة الأوروبية يراد استنساخها اليوم عند المسلمين، ولا شك أن مآلها هو الإلحاد، أو هي إلحاد ابتداءا ، ويمكن أن نميز بين اتجاهين كبيرين بخصوص الموقف من الوحي : الأول ينكر حدوث الوحي كما هو معروف عند المسلمين ويعطي الوحي معاني أخرى، والثاني يقر بحدوث الوحي ثم يتأوله ليؤول إلى موافقة الاتجاه الأول عمليا.

<u>أما الاتجاه الأول</u> فهو ينفي أي اتصال بشري مع عالم الغيب، وينطلق من فكرة تقرر أن الانسان ذو كينونة مستقلة تتعالى عن أي سلطة خارجية وبالتالي فلا يمكن أن يكون الإنسان محلا للتكليف الشرعي (الأوامر والنواهي)، ولما كانت النبوات وأثرها في التاريخ البشري أمرا لا يمكن إنكاره فقد سعى هؤلاء إلى تفسير الوحي على أنه حالة نفسية تعتري بعض البشر وقد تجد ما يعضدها من الظروف بحيث تخرج إلى الواقع ويظهر أثرها، وقد يتصف بعض البشر بصفات العبقرية والقيادة بحيث يمكنهم التأثير على مجريات

التاريخ، وبالتالي ففي أحسن الأحوال عند هؤلاء فقد كان الوحي مرحلة تاريخية أسهمت في تقدم البشرية ولم تعد الحاجة قائمة إليها بعد اكتمال الوعي البشري، يقتنص حسن حنفي هذا المعنى الأخير ويقوم بحشوه في كلمة ذات دلالة شرعية هي «ختم النبوة»، فالنبوة قد ختمت بعد سلسلة من الانبياء مع اكتمال العقل البشري وقدرته على الاستقلال عن الوحي ! وتابعه على هذا المعنى علي حرب في كتابه «نقد الحقيقة» وعبدالمجيد الشرفي في كتاب «الاسلام بين الرسالة والتاريخ»، ومحمد أركون في «القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني»، وخالص جلبي[128] إذ يقول : (إنها (تشير الى ختم النبوة) فكرة عملاقة تعني نهاية مرحلة توجيه الإنسان ليقوم بنفسه، فالنبوة تحوَّلت هكذا من نموذج قديم إلى نموذج جديد، يعتمد زخم العقل والعلم)، وكل هذا الكلام هنا ليس سوى نسخة مطابقة لكلام الفيلسوف جون لوك[129] أحد الفلاسفة المتزعمين للنزعة التجريبية : (لم تبق حاجة أو نفع للوحي، طالما أن الله أعطانا وسائل طبيعية أكثر يقينا لنتوصل بها إلى المعرفة)[130].

مآل هذه التمحلات المتكلفة أنه لم يعد هناك سبب يجعلنا نصدق الأنبياء عموما، ولا نبي الاسلام محمدا صلى الله عليه وسلم، إذ النبوة لا تجعل الانبياء أكثر علما، وهذا ما يصرح به حسن حنفي : (لم تجعل النبوة الانبياء أكثر علما بل تركتهم وأفكارهم السابقة، ولذلك لا يجوز لنا تصديقهم في الأمور النظرية)[131] ، وهذا مخالف لصريح القرآن مثل قوله تعالى: (**وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا**)[132]، وقوله تعالى : (**وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا**)[133] وقوله تعالى عن عيسى عليه السلام : (**وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ**)[134].

---

[128] خالص جلبي: مفكر وطبيب وجراح سوري المولد كندي الجنسية، حصل على الدكتوراه في الجراحة من ألمانيا وعمل في مستشفى الملك فهد في السعودية، له مؤلفات كثيرة منها: الطب في محراب الايمان، في النقد الذاتي.

[129] جون لوك : (1704-1632) فيلسوف تجريبي ومفكر سياسي إنجليزي، تعلم اللغات القديمة والتحق بجامعة اوكسفورد ودرس اللغات ودرس اللاهوت ثم درس الطب، وتفرغ بعد ذلك للكتابة في المجال السياسي.

[130] تكوين العقل الحديث – جون هرمان راندال ص: 440

[131] حسن حنفي – مقدمة كتاب: رسالة في اللاهوت والسياسة لسبينوزا ص: 50

[132] سورة النساء الآية 113

[133] سورة النمل الآية 15

[134] سورة آل عمران الآية 48

وترجع معظم تصورات هذا الاتجاه إلى آراء الفيلسوف سبينوزا وأثرها واضح في كتابات حسن حنفي ونصر حامد أبوزيد ومحمد أركون خصوصا في جنوحهم إلى أن الوحي ظاهرة إنسانية تتعلق بالخيالات والامور النفسية لا بالوحي الإلهي كما يقول سبيوزا في كتابه رسالة في اللاهوت والسياسة : (باستثناء المسيح، لم يتلق أي شخص وحيا من الله دون الالتجاء إلى الخيال، وينتج عن ذلك أن النبوة لا تتطلب ذهنا كاملا بل خيالا خصبا)[135]، ويتابعه مترجم الكتاب حسن حنفي فيقول: (القول بمصدر النبوة الإلهي نوع من التعمية والتضليل، وإخراج لها من طبيعتها الحسية وصفتها البشرية فالنبوة ليست غيبية)[136]، ثم يعضد هؤلاء آراءهم بأقوال المستشرقين عن الوحي للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، مثل المستشرق جولد زيهر[137] واميل درمنغام[138] وغيرهم ... مع أن كثيرا من المستشرقين هنا لا ينكرون حدوث الوحي مطلقا فأكثرهم يهود ونصارى يقرون بالوحي لموسى وعيسى عليهما السلام، ولكنهم ينكرون نبوة النبي صلى الله عليه وسلم تعصبا لأديانهم لا من منطلق فلسفي محض : (**وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**)[139]، لكن المنصفين لم يسعهم أمام الحقائق التاريخية إلا الإقرار بأن ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم يتجاوز حدود القدرة البشرية، يقول إدوارد مونتيه: (كان محمد نبيا بالمعنى الذي يعرفه العبرانيون القدماء، ولقد كان يدافع عن عقيدة خالصة لا علاقة لها بالوثنية) ويقول: (كان محمد نبيا صادقا كما كان أنبياء بني إسرائيل في القديم، كان مثلهم يؤتى رؤيا ويوحى إليه)، ويقول جون وانتبورت : (بقدر ما نرى صفة محمد الحقيقية عين البصيرة والتروي في المصادر التاريخية الصحيحة... وقد جاء بشرع لا يسعنا أن نتهمه فيه)، ومثلهم في هذا توماس كارليل ولامارتين ماري لوي دي، وتولستوي وتوماس آرنولد ...[140]

---

[135] رسالة في اللاهوت والسياسة سبينوزا- ترجمة حسن حنفي ص: 129

[136] حسن حنفي - من العقيدة إلى الثورة-الجزء 3 ص: 34 .

[137] جولد زيهر : (1850-1921) هو مستشرق يهودي مجري عُرف بنقده للإسلام، من رواد الدراسات الاسلامية في أوروبا، اشتهر بأعماله التشكيكية في الحديث النبوي وهو عمدة المستشرقين في هذا المجال

[138] اميل درمنغام : مستشرق فرنسي عمل مديراً لمكتبة الجزائر، ألف كتبا في السيرة النبوية أظهر فيها بعض الانصاف في تحليل أحداث السيرة مع تشكيك واضح في أصول الاسلام مثل سلامة القرآن من التحريف، ونشر عدداً من الابحاث في المجلات الشهيرة مثل: (المجلة الافريقية)، و(حوليات معهد الدراسات الشرقية).

[139] سورة البقرة الآية 101

[140] هذه النماذج وأقوال المستشرقين السابقة مأخوذة من كتاب : الرسول في الدراسات الاستشراقية لمحمد شريف الشيباني، وكتاب آراء المستشرقين حول مفهوم الوحي – إدريس حامد محمد

أما الاتجاه الثاني فلا ينكر وقوع الوحي الإلهي بل يقرُّ به ابتداء ثم يتأوله بطرق مختلفة لا تبقي من الوحي غير اسمه فيتفلت الانسان من التكليف الشرعي الذي عليه مدار رسالة الاسلام ويؤول الأمر إلى أن يوافق هذا الاتجاه الاتجاه الذي قبله في النتائج ويبقى الخلاف بينهما منحصرا في حدوث الوحي تاريخيا! تتعد المسالك التي يتم إلغاء أثر الوحي من خلالها، ويمكن أن أذكر لها هنا ثلاثة مداخل أساسية : -تاريخية النص وربطه بسياقات وظروف محددة ،وبالتالي الانفصال نهائيا عن الوحي، وهنا يكون العمل التغريبي منصبا على الجانب الفلسفي ومحاولة إخضاع الاسلام لنفس المناهج الغربية في التعامل مع الكتب الكنسية المقدسة.
-التشكيك في ثبوت ومصداقية النص الشرعي من حيث النقل، وفي هذا الجانب تنصب الجهود على التشكيك في مناهج المسلمين في توثيق النصوص الشرعية بدءا من دواوين السنة المعروفة (البخاري، مسلم ، ...) وصولا إلى التشكيك في النص القرآني.
-الالتفاف على النص وجعله نصا بلا معنى، أو نصا يحتمل كل المعاني، وبالتالي تسقط حجية الوحي إذ لا يمكن الاحتجاج بما لا ينضبط معناه ! وهنا يحاولون فتح الباب أمام الجميع لفهم نصوص الوحي كما يقول علي حرب : (النص يتسع للجميع ... ويندُر أن لا يجد إنسان في النص مقالته أيّا كان مذهبه ومأربه وأيّا كان صنفه ونموذجه)[141].

3)-تكذيب القرآن:

على منهج مشركي قريش الأوائل يظهر تكذيب القرآن في كتابات التنويريين، ويخرجونه مخرج النقد التاريخي ويزيّنونه بدعوى استعمال مناهج نقدية حديثة، وكل ما في الأمر هو رغبة في التمرد على ما يعتبرونه موروثا والالتحاق بركب الثقافة الغربية. يتنوع تكذيب هؤلاء للقرآن بين مشكك في بعض أخباره وقائل بتاريخية بعض أحكامه ومتهم بالتزوير والتحريف!

سنة 1926م أصدر طه حسين كتابه «في الشعر الجاهلي» وكان من أبرز ما أثار الجدل في الكتاب تكذيبه لقصة إبراهيم واسماعيل عليهما السلام في القرآن، يقول طه حسين : (للتوراة أن يحدّثنا عن ابراهيم واسماعيل، وللقرآن أن يحدّثنا عنهما أيضاً، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن، لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي،

[141] علي حرب – نقد الحقيقة ص: 45

فضلاً عن إثبات هذه القصة التي تحدّثنا بهجرة اسماعيل بن ابراهيم إلى مكة) ثم بعدها يردف قائلا: (ونحن مضطرون إلى أن نرى هذه القصة نوعا من الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة، وبين الاسلام واليهودية، والتوراة والقرآن من جهة أخرى) وقد قام بدحض هذه الاباطيل جمع من العلماء منهم مصطفى صادق الرافعي في كتابه (تحت راية القرآن) ومصطفى لطفي جمعة في (الشهاب الراصد) ومحمد الخضر حسن في (نقض كتاب في الشعر الجاهلي) ومحمد الخضري في (محاضرات في بيان الأخطاء العلمية والتاريخية التي يشتمل عليها كتاب في الشعر الجاهلي) وغيرهم ... وقد أحسنوا الرد وأتوا بالجواب الشافي لما خطه طه حسين، لكن الذي أريد أن أشير إليه هنا هو هذه الازدواجية في الغريبة، فبينما أسقط طه حسين حقيقة تاريخية ذكرها القرآن أثبت حقيقة أخرى بمجرد التخرص والتخمين ! وهي اعتباره قصة هجرة ابراهيم إلى مكة حيلة من العرب لإثبات الصلة مع اليهود، فكيف يمكننا تكذيب القرآن -وهو حتى عند الملاحدة وثيقة تاريخية- لنصدق تخمينات رجل لم يقدم أي دليل على كلامه ؟ وإن كانت هذه الحيلة ستنطلي على العرب لمصلحة في نفوسهم فكيف سينخدع بها اليهود ؟ وكيف يمكن أن يفسر طه حسين الاشارة إلى هجرة اسماعيل وأمه إلى مكة في كتب اليهود (فاران عند اهل الكتاب)[142] قبل حدوث الصراعات بين العرب واليهود والتي جعلها طه حسين سببا لاختلاق هذه القصة ؟ أم أن اليهود حرّفوا كتبهم إرضاء لأعدائهم العرب؟

لم يتوقف دعاة التجديد المزعوم عند تكذيب بعض آيات القرآن، بل سعى كثير منهم للتشكيك في صحة القرآن الذي يقرأه المسلمون اليوم، فقد جاء محمد أركون بأعاجيب من القول، فبعد أن أطال النفس في نقد القرآن وادعى انه لم يسلم من النقص والتحريف، فكر وقدر فاهتدى إلى نظرية غاية في الغرابة اتهم فيها النبي صلى الله عليه وسلم بتقوُّل القرآن وافترائه لتحقيق مصالح شخصية يضفي عليها القرآن طابع التعالي والقداسة.

---

[142] قال ابن تيمية: (ليس بين المسلمين وأهل الكتاب خلاف في أنّ فاران هي مكة) - الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح.

يهرطق أركون -دون أن يقدم أدنى حجة- ويقول أن القرآن قد صيغ بجهد بشري ورفع نفسه الى مستوى الوحي[143]، ويدعي أن القرآن كان أشبه بمذكرة يومية كانت تدوّن فيها القرارات والاحكام وأسماء الاشخاص والاماكن وغير ذلك، ومع مرور الوقت تم محوها ليصبح القرآن صالحا لكل زمان ومكان[144] !

لم يقدم أركون دليلا على كل هذا بل اصطدمت نظريته العجيبة بردة فعل غير متوقعة حتى ممن يشاركونه المرجعية نفسها، مما جعله يحاول تخفيف الأمر وينسب سوء الفهم إلى نقل نصوصه من الفرنسية إلى العربية : (لقد ألححت على هاشم صالح[145] حتى يكثر من الشروح والتعليقات في هوامش الصفحات لكي يساعد القاريء على الفهم الدقيق وينقذه من سوء الفهم والتورط في أحكام سريعة على أشياء لم يعرفها حق المعرفة)[146]. لم تغن هذه الافتراضات والتخيلات شيئا في خدمة أطروحة أركون **(وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا)**[147]، لكنه ذهب بخياله بعيدا حين أحال على المجهول وادعى من جديد أنه يمكن إثبات تحريف النص القرآني اعتمادا على وثائق تاريخية قديمة في أماكن سرية لا نعرف كي عرفها أركون : (يفيدنا في ذلك أيضاً سبر المكتبات الخاصة عند دروز سوريا، أو إسماعيلية الهند، أو زيدية اليمن، أو علوية المغرب، يوجد هناك في تلك المكتبات القصيّة وثائق نائمة متمنعة، مقفل عليها بالرتاج)[148]. ولم يختلف باقي دعاة التنوير ممن يقدمون أنفسهم باعتبارهم مفكرين اسلاميين مع هذا الطرح الأركوني إلا في تفاصيل يسيرة[149]، ومنهم حسن حنفي ونصر حامد أبوزيد[150] وعلي حرب[151] وعبدالمجيد الشرفي، ونسبوا القرآن الكريم إلى الأساطير مرددين بذلك قول كفار قريش الأوائل : **(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا)**[152].

---

[143] انظر : القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني ص: 21

[144] انظر كتاب الفكر الاسلامي قراءة علمية لمحمد أركون ص: 72

[145] مترجم كتب محمد أركون.

[146] انظر مقدمة أركون لترجمة كتاب تاريخية الفكر العربي الاسلامي.

[147] سورة النجم الآية 28

[148] محمد أركون- تاريخية الفكر العربي الاسلامي ص: 291

[149] يراجع كتاب: العلمانيون والقرآن الكريم – أحمد الطعان ففيه ذكر لآراء كثير من مدعي التنوير.

[150] ينظر كتاب : النص السلطة الحقيقة لنصر حامد ص: 41

[151] نقد النص علي حرب ص: 76

[152] سورة الفرقان الآيتان 4 و 5

مسالك التنوير الإلحاد

(وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل
فتفرق بكم عن سبيله)

بعد سرد المعالم المشتركة بين التنوير والإلحاد وذكر التقاطعات الكبرى بين التيارين، نأتي على ذكر جملة من المسالك التي يخوض بها دعاة هذه التيارات معركتهم ضد الاسلام في سبيل نشر وتثبيت أفكارهم في المجتمعات المسلمة. وأذكرهنا جملة من هذا المسالك مع أمثلة لها، والتي لا يخرج غالب عمل التنويريين عنها:

-من تجديد الفقه إلى تجديد أصول الفقه

-تاريخية النص: من الشرائع إلى العقائد

-التوسل بالاتجاهات الفكرية في التاريخ الاسلامي

-تفكيك الهوية الاسلامية بهويات أخرى

-تدوير الفكر الاستشراقي

1)-من تجديد الفقه إلى تجديد أصول الفقه:

من مسالك تيار التنوير التي يوظفها لخدمة الفكر الغربي المستورد : العمل من داخل المنظومة الفقهية للوصول إلى نتائج محددة سلفا، وهي طريقة التفافية لإبعاد الشريعة عن الحياة العامة، ليقتصر دورها على إسباغ مسحة شرعية على أهواء الناس درءا للحرج الذي يسببه لهم الوعي الاسلامي العام. يقول علي حرب: (فنحن نجد أن حسن حنفي الفيلسوف الناقد الهادم بعقله لكل شيء والساعي في الوقت نفسه إلى إعادة بنائه وتأسيسه يقدم نفسه بوصفه فقيها من فقهاء المسلمين يجدد لهم دينهم)[153]. وهكذا فإن الانخراط في سلك الفقهاء بلمسة عصرانية هي أولى خطوات التنوير لتفجير الإسلام وتلغيمه من الداخل حسب تعبير علي حرب نفسه. فإذا كانت الشريعة قد جاءت مثلا بتحريم الخمر في مقابل تيار علماني يعتبرها جزء من ثقافة الحداثة، فإن التحايل على إباحتها شرعا أمر حاوله كثيرون فجاءوا باجتهادات وتكلفات مضحكة .

---

[153] نقد النص ، علي حرب ص: 30

نجد هذا التصور الفاسد مثلا عند التونسي محمد الطالبي[154] الذي يدافع عن حلية الخمر ويجادل عنها ، ولكي نختصر الوقت بدلا من تتبع كل الكلام الفارغ الذي سرده في الدفاع عن موقفه، أقدم مثالا واحدا عن تهافت استدلالاته : يسرد الطالبي في معرض دفاعه عن حِلّية الخمر حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : ناوليني الخُمرة من المسجد، قلت: إني حائض. قال: إن حيضتك ليست في يدك[155]. يعمد الطالبي إلى الحديث فيفهم «الخُمرة» بضم الخاء وهي الثوب او سجادة الصلاة، على أنها الخَمرة بفتح الخاء ! وهذا فهم عجيب غريب ينِم عن ضحالة في الثقافة الشرعية وفقر فظيع في اللغة العربية، بل كان يكفي أن يطالع أيسر شرح للحديث، أو يتأمل بعض ألفاظ الحديث التي فسرت الخُمرة بالثوب، بل كان يكفي أي شخص عاقل أن يتأمل سياق الحديث، ليدرك أن لا علاقة للخمر بالمسجد أو بالحيض ! فلا غرابة إذن أن يتسلّح هؤلاء بتوظيف مصطلحات من داخل التراث الاسلامي، فيما يشبه التنازع مع الفقهاء التقليديين على مراكز النفوذ والسلطة ومحاولة لسحب بساط الشرعية من تحت أرجلهم. وفي هذا الباب أيضا نجد تضخما كبيرا لفقه المقاصد والمصالح فلا تسمع من القوم إلا «حيثما كانت المصلحة فثم شرع الله» ، دون انضباط أو تحديد للمرجعية التي تحدد لنا هذا المصلحة. فإذا كان فقه المقاصد تتويجا لقرون من التأليف والتقعيد الأصولي عند المسلمين، فإنه صار اليوم آلية اقتلعت من جذورها لتستعمل في صباغة واجهة العلمانية بصبغة شرعية.

فلا غرابة إذن أن نجد مؤلفات تحمل عناوين تحاول تأسيس شكل جديد من أصول الفقه والاستدلال، منها : (نحو أصول جديدة للفقه الاسلامي لمحمد شحرور) و (موافقات في قراءة النص الديني لعبدالمجيد الشرفي) و (من النص إلى الواقع محاولة لإعادة بناء علم أصول الفقه لحسن حنفي) وغيرها من الكتب... هنا يظهر الامام الشافعي عقبة أمام القفز على أصول الفقه باعتباره أول من دوّن في أصول الفقه وصاحب منهجية أصولية صارمة تقيّد القراءات المتفلتة للنص الشرعي، وتمنع التلاعب بدلالات الخطاب الشرعي ومقاصده، فكان لابد أن يهاجَم الشافعي ويُرمى بالعظائم، ويتهم في دينه وأمانته، ويتداعى لذلك محمد أركون وأدونيس ومحمد

---

[154] محمد الطالبي: (1921-2017) مفكر تونسي حصل على شهادة الدكتوراه من السوربون، وكان أول عميد لكلية الآداب في جامعة تونس ثم رئيسا لجامعتها، ودرس في عدد من الجامعات العربية والأوروبية.

[155] صحيح مسلم والسنن الأربعة ومسند أحمد.

شحروروجورج طرابيشي[156] وحسن حنفي ونصر حامد أبو زيد وعلي مبروك وغيرهم ...

فهذا محمد أركون يتهم الشافعي بالتسبب في جمود العقل الاسلامي وسجنه تحت سلطة النص[157]، ، وهذه تهمة باطلة يعلمها كل من تتبع عمل الشافعي فهو لم يزد عن تقعيد العمل الأصولي وفق نفس المنهج الذي كان قبله ولم يوجد في رسالته أصل من الأصول إلا ويرجع إلى الكتاب والسنة وفتاوى الصحابة...

أما أدونيس في كتابه «الثابت والمتحول» فينسب الشافعي إلى الجمود والعجز عن تأسيس معرفة جديدة والاكتفاء بإعادة انتاج المعارف السابقة. أما جورج طرابيشي فقد اتكأ على خلفيته النصرانية وغالى في التهجم على الشافعي إلى درجة تشبيه عمله الأصولي بما فعله بولس الرسول في الديانة المسيحية[158] !!وهذه فرية ساقطة.

وهذا حسن حنفي وتلميذه نصر حامد أبو زيد يتهمان الشافعي بالانحياز الايديولوجي للعروبة ويختلقان فكرة تأثير الصراع الشعوبي على رسالة الشافعي[159]، ويقدم حنفي صورة الشافعي عند تلميذه أبوزيد بهذه الصورة التي تجمع أخطاء غريبة، فالشافعي عنده: (أموي، سلطوي، قرشي، عروبي، مناهض للعقل والاجتهاد، باحث عن عمل، وربما مرتزق يريد أن يقبض ثمن تأييده للأمويين)[160].

وهذه والله فرية مضحكة، فما علاقة الشافعي بالأمويين !

ولد الشافعي سنة 150 هـ، أي بعد 18 سنة من سقوط حكم الأمويين ! فأي علاقة تجمع بين الشافعي وبني أمية أم هو مجرد التعلق بفكرة العروبة التي اختلقها وتخرصات لا علاقة لها بالبحث العلمي الجاد.

---

[156] جورج طرابيشي : (1939-2016) مفكر ومترجم عربي سوري، عمل مديراً لإذاعة دمشق ورئيساً لتحرير مجلة دراسات عربية ومحرراً رئيسياً لمجلة الوحدة، أقام فترة في لبنان، ولكنه غادر بعد الحرب الاهلية إلى فرنسا -التي بقي فيها حتى وفاته متفرغاً للكتابة والتأليف، من مؤلفاته معجم الفلاسفة، من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث...

[157] انظر كتاب: تاريخية الفكر العربي- محمد أركون ص: 74

[158] جورج طرابيشي – من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث ص: 219

[159] كتاب نصر حامد أبوزيد : الامام الشافعي وتأسيس الايديولوجيا الوسطية.

[160] حوار الأجيال – حسن حنفي ص: 466

ليس الأمر غريبا عندما تقرأ لأستاذه حسن حنفي أن الشافعي تلميذ لأبي حنيفة[161]! مع أن الشافعي ولد في السنة التي توفي فيها أبو حنيفة رحمهم الله جميعا ! حاول أبوزيد ترقيع هذه الفرية وادعى أنه لم يكن يقصد الأمويين بل العلويين وأن الأمر مجرد خطإ مطبعي!

لكنه تناسى أن خطأه كان مزدوجا حين اتهم الشافعي بأنه : (الفقيه الوحيد من فقهاء عصره الذي تعاون مع الأمويين مختارا راضيا خاصة بعد وفاة استاذه الامام مالك بن انس الذي كان له مع الأمويين موقف مشهود بسبب فتواه بفساد بيعة المكره وطلاقه)[162]، فإن فتوى الامام مالك وما تبعها إنما كان في خلافة أبي جعفر المنصور! أما محمد شحرور فيتهم الشافعي بزرع بذور التحريم في العقل العربي الاسلامي[163]، ويزعم علي مبروك أن الشافعي لم يطلب العلم ولا درس الفقه إلا من أجل الدنيا وتكسّب المال[164]! ولم يكن هؤلاء بدعا في هذا القدح المغرض في الشافعي، وهم في كل هذا تبع لأساتذتهم المستشرقين مثل جوزيف شاخت[165] الذي شن هجوما باطلا على الشافعي في كتابه (بداية الفقه المحمدي).

2)-تاريخية النص: من الشرائع إلى العقائد:

إن الناظر في التراث الفقهي على مدى قرون يرى جليا مدى المرونة الفقهية للأحكام الشرعية بحيث استوعبت أزمنة طويلة وأمصارا متباعدة الاطراف على اختلاف بيئاتها وأعرافها، وقد كان الاجتهاد الفقهي هو الركيزة الاساس في ضبط الفتوى والقضاء لتتناسب مع مختلف الاحوال ، وقد عمل الفقهاء على تأصيل طرق الاجتهاد وأساليب الاستنباط واستقرت أصول المذاهب الفقهية التي عليها مدار التخريج الفقهي. وإذا تأملنا أصول هذه المذاهب وجدناها تزاوج بين أمرين : النقل والعقل، مما يجعلها أصولا تجمع بين الصرامة المنهجية والمرونة في مراعاة الواقع، فالأصول التي يغلب عليها

---

161 : حسن حنفي ، من النص الى الواقع ص: 56، والغريب أنه جعل أبا حنيفة تلميذا لمالك !

162 الامام الشافعي – نصر حامد أبوزيد ص: 16

163 نحو أصول جديدة للفقه الاسلامي- محمد شحرور ص: 171

164 ما وراء تأسيس الأصول- علي مبروك ص : 110

165 جوزيف شاخت: (1969-1902) مستشرق ألماني وباحث في الدراسات العربية والإسلامية ومتخصص في الفقه الإسلامي، حصل على الدكتوراه في ألمانيا ودرّس فيها، وعمل استاذا زائرا في جامعة القاهرة وخالطه فيها عدد من المفكرين العرب، كما زال المغرب والجزائر وتونس وتركيا.

النقل نحو : القرآن والسنة والاجماع وقول الصحابي ونحو ذلك، وأصول أخرى يغلب عليها الطابع العقلي مثل القياس والمصالح المرسلة والاستحسان والاستصحاب والعُرف... هنا يدخل دعاة التجديد لمحاولة خلخلة هذا النسق الفقهي المنسجم وخلق جدلية بين العقل والنقل، لمحاولة تغليب كفة الاصول العقلية على الاصول النقلية، فالمصالح مقدمة عندهم على الاجماع والاستحسان والعُرف أولى من السنة ! فليست المصالح المرسلة ونحوها إلا مدخلا لشرعنة الأهواء والمصالح المادية التي تفرضها الثقافة الواردة، مما يسمح بإدماج التصورات الغربية في الفقه الاسلامي. وليس العُرف إلا استغلالا لسيف الواقع وواقع الاستضعاف لعلمنة المجتمع بآلية تبدو في ظاهرها شرعية.

وليس الاستحسان إلا وسيلة للتمرد على التكليف الشرعي الذي عليه مدار الاسلام، وإحلال الأذواق والأفكار الموجهة مكان الخطاب الشرعي.

هذا الخلط المتعمد بين القطعي الذي لا يدخله الاجتهاد وبين غيره ينتهي إلى إسباغ صفة التاريخية على كل الشريعة الاسلامية، والتملص من حاكمية الشريعة على الفرد والمجتمع وإطلاق العنان للفلسفات البشرية لتحل محل الشريعة الاسلامية. يبدو الأمر للوهلة الأولى وكأنه نقاش حول آلية فهم النصوص الشرعية، ويُسوّق الخلاف على أنه قائم على أصول شرعية غايتها الحفاظ على حاكمية الوحي وملاءمته مع تطور المجتمعات البشرية، لكن هذه النزعة القائلة بتاريخية الشريعة والقوانين الاجتماعية تستبطن إسقاط جوهر الشريعة واعتبارها منتجا بشريا يناسب فترة من فترات التطور.

وهكذا نكون قد فصلنا الاسلام عن المجتمع وسحبناه نحو المدار الأوروبي ليدور في فلك الثقافة الأوروبية التي هي معيار الثقافة السليمة.

نجد الدكتور محمد عابد الجابري يدعو إلى تجاوز المذاهب الفقهية لأنها نشأت في ظروف سياسية مشبوهة وكانت موجهة بالضغط السياسي[166] ويدعو إلى العودة للكتاب والسنة وفقه الجيل الأول، إنها في الظاهر سلفية جديدة، لكن الجابري نفسه ينتهي إلى أن المعيار الذي كان سائدا عند الصحابة هو فقه المصلحة ولا شيء غيرها، متجاوزين بذلك قطعية النصوص الشرعية[167]، وهذه دعوى عريضة تنسف كل تلك المنظومة الفقهية.

---

[166] محمد عابد الجابري، الدين والدولة وتطبيق الشريعة ص: 8

[167] نفس المصدر ، ص: 9

المتراصة !ليتجاوز الجابري هذه المنظومة الفقهية ويدعو إلى تحكيم العقلانية العلمانية وفصل الدين عن الدولة ، لكنه يفضل استعمال شعار الديموقراطية بدل العلمانية. وهكذا يكون الفكر العربي[168] قد انجز قفزة كبيرة من الاجتهاد الفقهي إلى العقلانية العلمانية، وعادت هذه الشريعة الجديدة على أصلها بالإبطال، لكن المميز أن كل هذا تم بآليات من داخل النسق الاسلامي (النسق العربي حسب تعبير الجابري).
لكن هل ينتهي الأمر هنا ؟!

بعد أن يتم تقزيم دور الوحي في تنظيم حياة الانسان باستبعاد الشريعة كليا عن المجال العام، تكون سهام التغيير قد اتجهت نحو اسقاط العقائد، إنه القول بنسبية الحقيقة ولا يمكن للعقيدة أن تكون استثناء، ولم يكن كل ذلك الكلام عن نسبية التشريعات وملاءمتها لبيئتها إلا تمهيدا للقول بنسبية العقائد.
إن مصدر مصداقية التشريعات في الفقه الاسلامي هو رجوعها إلى جوهرة العقيدة الاسلامية، ففي كثير من الآيات القرآنية ربط واضح بين الشريعة والعقيدة : (**مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ**)[169] ، (**وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ**)[170] ، (**ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**)[171] ... إلى غير ذلك من النصوص الشرعية.
لذا فإن أي إلغاء للأحكام الشرعية إنما يرجع في الأصل إلى إبطال أصل عقدي، فلا معنى من اتصاف الله عزوجل بالحكمة والعلم ما دام يمكننا إدخال النسبية على آيات من القرآن وإلغاؤها، وإن أمكننا القول بتاريخية قوله تعالى : (**وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**)[172] أو قوله تعالى : (**يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ**)[173] ، فما المانع من إدخال هذه التاريخية على آيات أخرى مثل: (**وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ**)[174] ، أوقوله تعالى: (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**)[175] .

---

[168] استعملت هذا المصطلح مسايرة لطرح الدكتور محمد عابد الجابري، وهو من الاصطلاحات التي انتقدها عليه كثير ممن يقاربونه في الطرح العلماني ....

[169] سورة النساء الآية 80

[170] سورة المائدة الآية 49

[171] سورة الجاثية الآية 18

[172] سورة المائدة الآية 38

[173] سورة النساء الآية 11

[174] سورة البقرة الآية 63

[175] سورة البقرة الآية 21

هذا بالفعل ما نادى به كثيرمن العصرانيين لينتهي بهم الأمر إلى نوع من الإلحاد المغلّف بهيكل إسلامي أجوف !

ينتقد محمد أركون هذه الدعوة القاصرة على تاريخية الشرائع ويراها مجرد استراتيجية جبانة تتغيا نزع القداسة عن الوحي دون الاصطدام بالعقيدة، ويدعو إلى طرح أكثر شجاعة وهو القول بتاريخية العقائد : (نصطدم بأكبر عقبة في وجه تقدم الدراسات الإسلامية والفكر العربي، ألا وهي التسليم للعقائد ورفض تاريخية تلك العقائد)[176].

إن مجرد القول بنسبية العقيدة يهدم أصل الاسلام ويفكك كل النظرة للوجود التي جاء بها الاسلام، فكل من يقرأ القرآن يدرك يقينا وحدة العقيدة التي جاء بها الأنبياء من آدم عليه السلام إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فكيف يمكن أن تجتمع هذه العقيدة مع تلك الرؤية القائلة بتطور العقائد مع تطور المجتمعات البشرية.

وهنا يكون العقل العصراني قد وصل إلى عتبة الالحاد الصريح، لكن الواقع والظروف السياسية غير ملائمين لهذا النوع من النتشوية الحادة، لذا يلجأ الكثيرون إلى نوع من السفسطة والتكلف الغريب لمحاولة حشر هذا الالحاد في قالب اسلامي لا يحتفظ بغير الاسماء !! أو بتعبير حسن حنفي : الاحتفاظ بالمقدمات الإيمانية التقليدية وحشوها بتعريفات جديدة، يستحضر الرجل هنا ماديته الماركسية ويحاول أسلمتها لينتهي به الأمر إلى إنكار كل الغيبيات بما في ذلك وجود الله عز وجل والنبوات واليوم الآخر، فكل ما لا يخضع عنده للتجربة والحس المادي غير موجود، ومع هذا يرى أنه لا زال يمكن أن يعتبر نفسه مسلما .

ولا غرابة فالرجل يرى أن الإلحاد هو المعنى الأصلي للإيمان لا المعنى المضاد[177]. إنها مجرد سفسطة تحاول جعل الكفر إسلاما، بل العجيب أن هذا الفكر الذي قام على إسقاط المقدس وإحلال العقل مكانه يتوسل بهذا المقدس لعله يجد قبولا في البيئة الاسلامية !

---

[176] الفكر الاسلامي قراءة علمية ، محمد أركون، ترجمة هاشم صلاح.

[177] التراث والتجديد ، حسن حنفي ص:54

3)- التوسل بالاتجاهات الفكرية في التاريخ الاسلامي:

كما سبق في الفقرة السابقة فإن العمل من داخل المنظومة الاسلامية يتيح هامشا من المناورة، ويشكل طريقة لتجنب الاصطدام المباشر مع العقيدة الاسلامية وشرائعها. يقول المفكر المغربي محمد عابد الجابري: (نستطيع بشكل أو بآخر استغلال الحوار الذي دار في تاريخنا الثقافي بين المتكلمين بعضهم مع بعض ونوظف هذا الحوار، لنا حرمات يجب أن نحترمها حتى تتطور الأمور، المسألة مسألة تطور)[178]. لهذا فلم يكن غريبا أن نجد كثيرا من دعاة التنوير يتوسلون بمختلف الاتجاهات الفكرية عبر التاريخ الاسلامي محاولة منهم لاستغلال التربة المحلية لاستنبات أفكار علمانية مستوردة، ويشرح نصر حامد أبوزيد هذه الفكرة بوضوح : (اتجهت التيارات العلمانية الى مواجهة الحاضرومحاولة حل إشكالياته بآليات ذات طابع عصري في أغلب الاحيان، لكنها أحست بضرورة طرح هذه الآليات طرحا يسوغ قبولها من الجماهير، فوجدت في بعض اتجاهات التراث سندا لتوجهاتها... تحول (التراث) لدى السلفيين إلى إطارمرجعي بينما تحول عند العلمانيين إلى غطاء وسند)[179].

وهنا أضع بين يدي القارئ نماذج من هذا المسلك:

-<u>احياء فكر المعتزلة</u> : وهي فرقة كلامية ظهرت في القرن الثاني الهجري نتيجة الجدل الكلامي في مباحث عقدية كالقدر والموقف من مرتكب الكبيرة وغيرها من المباحث ... ولعل أكثرما اشتهربه مذهب الاعتزال في عصرنا هوتقديم العقل على النقل والقول بخلق لقرآن وهما الفكرتان اللتان نجدهما تتكرران عند التنويريين المعاصرين، بغض النظرعن موافقتهم لحقيقة مذهب المعتزلة ،لكن الأهم هو اعطاء شرعية تاريخية للعقيدة العلمانية! وفي هذا المسلك نجد المفكر الجزائري محمد أركون خيرمثال فهو صريح في ضرورة إحياء فكرة المعتزلة عن «خلق القرآن» لفتح ثغرة في الجدار المسدود للتاريخ –حسب تعبيره-.

يقول أركون عن «خلق القرآن» : (ينبغي أن نحفر عليها أركيولوجيا (يقصد مذهب الاعتزال)، أن ننبشها من تحت الأرض، أن نذكر الناس بها ، وكل ذلك من أجل أن نفتح ثغرة في الجدار المسدود للتاريخ)[180].

---

[178] التراث والحداثة- محمد عابد الجابري ص: 260

[179] نصر حامد أبوزيد – نقد الخطاب الديني ص: 154

[180] قضايا في نقد العقل الديني – محمد أركون – ص : 278

لماذا إذن كل هذا الجهد الجهيد ؟

يجيب أركون بعدها بأسطر: (....المعتزلة مسلمون بالكامل، ولهم المشروعية ذاتها التي لغيرهم، وبالتالي أنا لا أعارض تصورات الأصوليين بكلام مجلوب من الخارج من أوروبا أو من عصر التنوير أو من السوربون، فليكفوا عن القول إذن : هذا استغراب، هذه تبعية للمناهج الغربية.... إلخ، لا، انا أعارض الأصوليين بما أجده داخل التراث الإسلامي ذاته)[181].

إنه إذن صراع على الشرعية داخل العالم الاسلامي !

وبالطبع فإن أركون لم يتفرد بهذا، بل سلك هذا المسلك معه كثيرون مثل : أحمد أمين، قاسم أمين، حسن حنفي، زكي نجيب محمود، وغيرهم. ما الهدف إذن من إحياء فكرة خلق القرآن ؟

إنها الفكرة التي ظفر بها نقاد التراث للوصول إلى بشرية القرآن و››نزع القداسة عنه›› ، وهذا هو المسلك الذي سلكه أركون لإنكار أن يكون القرآن كلام الله ووحيا منه ، ليخرج علينا بقول كفار قريش الأوائل : (إن هذا إلا قول البشر).

وقد سبق أن ذكرت موقفه من القرآن الكريم في الفصل السابق، فليراجع هناك[182]. وممن يردد هذه الفكرة الاعتزالية وينحو بها نحو الكفر البواح الكاتب المغربي سعيد ناشيد حين يقرر أن هذه الفكرة هي المدخل الأساس للقول بموت القرآن وتجاوزه : (كيفما كان المعنى الذي نمنحه لله (الحياة، الطبيعة، الوجود، التاريخ...)، فإن القرآن كلام مخلوق كما يرى المعتزلة، وليس في ذلك ما قد يدل على أن كلام الله صالح لكل زمان ومكان، بل العكس تماما، لكل مخلوق عمر محدود، وكون الله هو أصل المخلوقات لا يعني ذلك أن المخلوقات أبدية، فكلام الله إذن وأسوة بكافة المخلوقات محكوم بمبدأ الحياة والموت، وهو المبدأ الذي نصطلح عليه عادة باسم الصيرورة)[183]. ومما تجدر الاشارة إليه أن موقف هؤلاء العصرانيين لا علاقة له بموقف المعتزلة من خلق القرآن، بل ينم عن قصور في تصور المنهج الكلامي للمعتزلة أو يكشف

---

[181] المصدر السابق.

[182] انظر توضيحا لموقف أركون من القرآن في فقرة (تكذيب القرآن)، الصفحة: 46 من هذا الكتاب.

[183] سعيد ناشيد- من مقال بعنوان : ما هو القرآن؟ على موقع الحوار المتمدن .

سوء القصد في استغلال هذا الموقف، إذ غاية مذهب المعتزلة في خلق القرآن –وإن كان باطلا في نفسه- الدفاع عن العقيدة الاسلامية أمام الفرق الكلامية ولا علاقة له بقول بعض المعاصرين الذين انتهوا إلى رد القرآن جملة وتفصيلا.

-علمانية ابن رشد[184]: من الشخصيات المسلمة التي وجد فيها تيار التنوير طريقا لمواجهة ما يسمونه الأصولية الاسلامية والتي يقصدون بها عموم أهل السنة، شخصية ابن رشد الفيلسوف. على غرار الاهتمام الأوروبي بفلسفة ابن رشد باعتباره واحدا ممن نقلوا فلسفة اليونان إلى أوروبا بشروحه لكتابات أرسطو وشرحه لكتاب الجمهورية لأفلاطون، فقد عمل كثير من الباحثين العرب على إيجاد حلقة وصل بين فلسفة ابن رشد والفيلسوف اليهودي سبينوزا الذي كان له أثر كبير في تحول العقل الأوروبي، وذلك من خلال التأكيد على انتقال الفلسفة الرشدية إلى التراث اليهودي عن طريق موسى بن ميمون وجرسونيدوس وغيرهم، ليقوم سبينوزا باستلهامها وتطويرها[185]. وبهذا يكون الفكر التغريبي العربي قد وجد حلقة وسيطة تصل الفكر الغربي بالتراث الاسلامي وتضفي صبغة شرعية على أعمال سبينوزا وتبرر إقحامها في تفكيك الخطاب الشرعي الاسلامي ! يُستحضر ابن رشد في أدبيات التنوير للمماثلة بين موقف الاسلام من الحداثة وموقف الشريعة من الحكمة كما أسس له ابن رشد في كتابه: فصل المقال وتقرير ما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، إنه في نظر التغريبيين الفيلسوف الذي أسس العقل وقلص الدين كما يقول أدونيس. تقوم هذه الآلية على استلهام فكر ابن رشد وتقبله للفلسفة اليونانية، لتبرير دمج الفلسفات المعاصرة في الدراسات الاسلامية، تماما كما أدمج ابن رشد لكتاب «ما بعد الطبيعة» لأرسطو في التصور الاسلامي، إنها محاولة أيضا لإخراج التصور الذي فصل به ابن رشد بين الشريعة والحكمة على أنه تصور علماني يفصل بين المقدس (الشريعة) والفكر الحر (الفلسفة)، وبتعبير سبينوزا في كتابه رسالة في اللاهوت والسياسة : الفصل بين الإيمان والفلسفة. لقد وجد هؤلاء في ابن رشد النسخة الاسلامية من فلسفة أرسطو، على أن ابن رشد إنما نقل هذه الفلسفة وتعلق بها على أنها حقيقة مطلقة وغالى في تمجيدها لدرجة الخضوع

---

[184] ابن رشد الحفيد: فيلسوف وطبيب وفقيه وقاضي وفلكي مسلم أندلسي، أحد كبار الفلاسفة في الحضارة العربية الإسلامية، وهو شخصية علمية مسلمة متعددة التخصصات، تولى ابن رشد القضاء في إشبيلية، ثم في قرطبة ، وله مؤلفات كثيرة منها : بداية المجتهد ونهاية المقتصد، تهافت التهافت.

[185] ابن رشد وسبينوزا وعصر التنوير الأوروبي – أشرف حسن منصور

والتسليم لها، يقول ابن رشد: (إن مذهب أرسطو هو الحقيقة المطلقة، وذلك لبلوغ عقله أقصى حدود العقل البشري)[186].

على أن كل هذا التعلق بابن رشد ليس الهدف منه إحياء فقهه وتراثه، بقدرما هو تقليد للغرب أولا، ثم محاولة لإيجاد مدخل لتفكيك الخطاب الشرعي والتملص من تكاليف الوحي، وتغليب الفلسفة على الشريعة، أو بالتعبير الغربي تحكيم العقل على اللاهوت ، إنه في نظر هؤلاء المركب التراثي الذي يقود إلى الضفة الأخرى حيث جوهر الحداثة الغربية: العقلانية العلمانية.

-**الحلاج نموذج مصطنع** : شخصية أخرى من التاريخ الاسلامي يحاول المعاصرون بعثها وتصويرها نموذجا متمردا يسعى لكسر العقائد الاسلامية، مع أنها لم تكن في التصور الاسلامي العام سوى نوع من الشذوذ عن أصل العقيدة الاسلامية والغلو في عقائد الحلول والاتحاد وغيرها من أفكار أهل الزندقة. فلا غرابة أن يستدل به صادق جلال العظم –وهو ملحد- في مرافعته دفاعا عن حقوق إبليس! [187]، ولا عجب أن يرجع أدونيس داعية القطيعة المطلقة مع التراث إلى الحلاج باعتباره مفتاحا النوع من الحداثة العربية. تولى كِبر بعث هذه الشخصية مستشرق فرنسي هولويس ماسينيون[188] حيث عمل على تتبع آثار الحلاج وجمع كل ما نقل عنه من أقوال وأشعاروأحوال في كتب منها : آلام الحلاج، ديوان الحلاج، أخبار الحلاج، شغف الحلاج ... وتبعه على هذا رائد الفلاسفة العرب عبدالرحمن بدوي فقام بترجمة ما كتبه ماسينيون، ثم تتابع الكتاب بعده على الاحتفاء بهذه الشخصية، لتدخل بعدها للثقافة المعاصرة من باب الأدب والفنون من خلال أدونيس وصلاح عبدالصبور وعبدالوهاب البياتي ونجيب سرور ، ثم دخلت أشعار الحلاج بعد ذلك عالم الغناء والطرب .

---

[186] ابن رشد والرشدية – إرنست رينان ص 71 ، نقلا عن كتاب تهافت التهافت .

[187] نقد الفكر الديني ص 112

[188] لويس ماسينيون: (1962-1883) مستشرق فرنسي، عمل مستشارا لوزارة المستعمرات الفرنسية في شؤون شمال أفريقيا، وكذلك الراعي الروحي للجمعيات التبشيرية الفرنسية في مصر،

4)-تفكيك الهوية الاسلامية بهويات أخرى:

خلافا للمسلك السابق الذي يعتمد استثمار التراث الاسلامي لاستنبات الفكر الغربي في بيئة مسلمة، فإننا في هذه الحالة أمام محاولات لإزاحة الهوية الاسلامية باستثمار تراث غير إسلامي، وقد شكل المدخل القومي والعرقي دائما طريقا معبدة إلى التقسيم والشتات الذي تنشده الدول الاستعمارية فهو يفكك الروابط السياسية ويذيب الجامعة الاسلامية ويثير النعرات والنزاعات، ويشير المؤرخ الانجليزي أرنولد توينبي[189] إلى هذا بقوله: (إن القومية لا تستطيع أبدا أن توحد الإنسانية، بل إنها توزعها وتشتت شملها، ومن أجل ذلك ليس لها مستقبل ، وإنها لا تستطيع إلا أن تدفن البشرية في ركامها)[190].

بدأ الأمر في بلدان الشرق الأوسط مع أولى بوادر نشوء القومية العربية في سياقات سياسية كانت تحاول تفكيك دولة العثمانيين، استغلت فرنسا وبريطانيا ظروف التوتر التي كانت سائدة بين العرب والأتراك لتدعم العرب لإنشاء ما سمي الدولة العربية.

لم يكن هذا الصراع السياسي والعسكري ليمر دون أن يترك أدبيات عربية وينشر أفكارا دخيلة على الاسلام بقي أثرها حتى بعد انحسار موجة القومية العربية. وقد كان لنصارى العرب دور مهم في نشر القومية العربية وتفكيك الرابطة الاسلامية خلال القرن التاسع عشر ونجد ذلك في كتابات بطرس البستاني[191] وابراهيم اليازجي[192] ونجيب عازوري[193] .

---

[189] أرنولد توينبي: (1975-1889) مؤرخ وفيلسوف بريطاني، أهم أعماله موسوعة دراسة للتاريخ، وهو من أشهر المؤرخين في القرن العشرين.

[190] الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية في الاقطار الاسلامية ص: 167- أبوالحسن الندوي – الطبعة الاولى

[191] بطرس البستاني : (1883-1819) أديب وموسوعي ومؤرخ لبناني ماروني من زعماء النهضة العربية ، ومن أهم أعماله دائرة المعارف: قاموس عام لكل فن ومطلب.

[192] ابراهيم اليازجي: (1906-1847) لغوي وناقد وأديب لبناني ومن زعماء التنوير العربي في القرن التاسع عشر، أسس مجلة الضياء سنة 1898م في القاهرة، وتولى تحرير جريدة النجاح عام 1872.

[193] نجيب عازوري: (1916-1873) سياسي ومفكر قومي عربي، درس العلوم السياسية في باريس، وتولى منصب مساعد حاكم القدس، ودعا الى استقلال الدول العربية عن العثمانيين.

ظهر لأول مرة بين المسلمين تمجيد التراث الجاهلي (قبل الاسلام) وتفاخر بمماليك العرب في اليمن والشام والعراق (سبأ، الغساسنة، حِميَر...) ، وبلغ الغلو في هذه الفترة – أواخر القرن 19 وأوائل القرن 20 - إلى محاولة فصل التاريخ العربي عن التاريخ الاسلامي، كل هذا في سياق الصراع الفكري مع القومية الطورانية (التركية) ممثلة في حركة تركيا الفتاة[194] وجمعية الاتحاد والترقي[195] .

كان العمل على ما اعتبر إعادة الاعتبار لتاريخ العرب قبل الإسلام والاعتراض على الموقف الاسلامي من الجاهلية، بما في ذلك رفض مصطلح «الجاهلية»، تقوم الفكرة كلها على تمجيد تاريخ العرب قبل الاسلام في مقابل التركيز على بعض سلبيات التاريخ الاسلامي (الحروب والصراعات ...) في محاولة لتحقيق نوع من التوازن بين تاريخ العرب قبل الاسلام وبعده، بل بلغ الأمر بالمفكر زكي الأرزوسي[196] إلى حد اعتبار العصر الجاهلي هو العصر الذهبي للعرب !!

وبعد أن تخلت الدول الغربية عن فكرة إنشاء الدولة القومية العربية لصالح تقسيم سايكس بيكو نشأت دول قومية عربية على رقع جغرافية غير متجانسة عرقيا مما أنتج مشاكل جديدة، فقد استبدت الأنظمة العسكرية العربية وبالغت في إقصاء القوميات الأخرى، فظهرت بذلك قوميات أخرى كالأكراد والأمازيغ والتركمان تدعو بنفس الطريقة إلى تمجيد تاريخها القومي وبشكل منفصل عن تاريخها الاسلامي! وكما كانت فرنسا وبريطانيا إلى جانب العرب ضد الأتراك لتفكيك الدولة العثمانية، وقفت الدول الغربية من جديد مع هذه القوميات الجديدة واعتبرتها وسيلة لابقاء نفوذها قائما في المنطقة العربية.

البحث عن هوية ثقافية من خارج الدين كان سمة بارزة في الكتابات التي حاولت تقديم حلول للتخلف الحضاري الذي يعيشه المسلمون، سنة 1938م كتب طه حسين كتابه عن «مستقبل الثقافة في مصر»، وكان محور الكتاب هو إيجاد هوية أوروبية لمصر، يؤكد

---

[194] تركيا الفتاة : اتحاد مجموعات عديدة مؤيدة لإصلاح الإدارة في الدولة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، وأعلنت ثورة أدت إلى خلع السلطان وتنصيب أخيه محمد الخامس.

[195] جمعية الاتحاد والترقي: حركة معارضة وأول حزب سياسي في الدولة العثمانية وضمت إلها أعضاء تركيا الفتاة، وصلت إلى الحكم بعد تحويل السلطنة إلى ملكية دستورية.

[196] زكي الأرزومي: مفكر وعربي سوري، من أهم مؤسسي الفكر القومي العربي، درس الفلسفة في جامعة السوربون، وعمل استاذا للفلسفة في مدارس انطاكية وحلب ودير الزور.

طه حسين أن العقل المصري ليس عقلا شرقيا وأن الانتماء الحقيقي لمصر هو للحضارة اليونانية، وبالتالي فإن السبيل نحو نهضة مصر هو الرجوع إلى الهوية الأوروبية والأخذ بمقوماتها دون استثناء ! بل يقرر أن الذوبان في الثقافة الاوروبية ليس اختيارا بل التزاما التزمه المصريون أمام العالم في معاهدة الاستقلال : (التزمنا أمام أوروبا أن نذهب مذهبها في الحكم، ونسير سيرها في الادارة، ونسلك طرقها في التشريع، وهل كان إمضاء معاهدة الاستقلال ومعاهدة إلغاء الامتيازات إلا التزاما صريحا قاطعا أمام العالم المتحضر بأننا سنسير سيرة الأوروبيين في الحكم والإدارة والتشريع)[197].

وفي مصر نفسها تظهر الدعوة للرجوع إلى الفرعونية وإحياء الأمجاد القديمة تزامنا مع الاكتشافات الأثرية التي كان الأوروبيون مولعين بها، كان هذا الاهتمام بالفراعنة واضحا عند أوائل التنويريين مثل رفاعة الطهطاوي في كتابه «أنوار توفيق الجليل في أخبار مصر وتوثيق بني اسماعيل»، كما لعب الأقباط دورا مهما في ترويج هذه الدعوة الفرعونية.

تبنى محمد حسنين هيكل[198] هذه الدعوة وسعى بكل سبيل للتمكين لها في الاعلام والسياسة وبالغ في تمجيد الفراعنة والدعوة الى الرجوع لحضارتهم : (لم تكن مصر مهد المدَنية بل كانت قِمتها وغايتها وهذا التاريخ الذي يروونه وهذه الاساطير التي يتناقلونها ليست الا أثرا من آثار كبرياء الشباب الفارغة، أما آثار العقل الناضج ، آثار المدنية الصحيحة، آثار الرقي الانساني الصاعد بالروح إلى ملكوت الملائكة بل الآلهة، فذلك ما لم تبلغه الانسانية ولن تبلغه حتى تكون مصر في الطليعة، وحتى يدين لها الناس بالسبق والقيادة إلى غاية الكمال)[199].

ولم تنقطع الدعوات إلى إيجاد هويات جديدة في العالم الاسلامي ومحاولة التخلي عن الهوية الاسلامية، بل كان المدخل العرقي والقومي وسيلة لمواجهة العقيدة الاسلامية وإزاحتها عن الشأن العام تحت دعاوى العلمنة والتقدم.

---

[197] طه حسين – مستقبل الثقافة في مصر ص: 34

[198] محمد حسنين هيكل: (1923-2016) صحفي مصري تولى مناصب صحفية مثل رئيس تحرير جريدة الأهرام، وكان قريبا من دوائر القرار السياسي منذ عهد الملك فاروق ولازم الرئيس جمال عبد الناصر خلال فترة حكمه، مما جعله احد أشهر الصحفيين العرب.

[199] محمد حسنين هيكل – في أوقات الفراغ: مجموعة رسائل أدبية تاريخية أخلاقية فلسفية ص: 266

5)-تدوير الانتاج الاستشراقي:

لا يمكن مناقشة الاعمال النقدية للتراث الاسلامي دون التطرق للتأثير الكبير للعمل الإستشراقي على أدبيات التنوير، إذ يمثل الخزان الكبير للمادة النقدية التي يعتمدها خطاب العصرانيين، فما توفره الكتابات الاستشراقية من معطيات ومراجع ومخطوطات تجعل الناقد للتراث أمام كم هائل من محاولات تشويه الاسلام والتي يمكن تقديمها في قالب البحث العلمي، بالإضافة إلى أن وقوع غالب الانتاج الفكري للحداثيين وغيرهم تحت سطوة الثقافة الغربية يجعلهم أميل إلى اعتماد المادة الاستشراقية بدلا من الانتاج الاسلامي الأصيل. بذل المستشرقون جهدا كبيرا في دراسة التراث الاسلامي، وكانت لهم جهود مفيدة في خدمة كتب المسلمين خاصة في ما يتعلق بتحقيق المخطوطات وفهرستها، بالاضافة إلى جهودهم المهمة في الترجمة، لكن الطابع التوظيفي طغا على كثير من أعمالهم بسبب الخلفيات الدينية والعسكرية.

نشأ الاستشراق منذ الاحتكاكات الأولى بين الاسلام والمسيحية فكان جوهره هو التمثلات والتصورات التي صاغها الأوروبيون عن الاسلام مدفوعين بالروح الصليبية التي تسعى إلى تحصين الأوربيين ضد اعتناق الاسلام، فلا غرابة أن تكون هذه التصورات مغالية في التشويه والكذب والاختلاق، هذه الروح لم تفارق الاستشراق حتى عند انتقاله في ما بعد إلى مستوى البحث والتحقيق ! بل ظلت الروح الصليبية حاضرة بقوة وأنتجت مجموعة من الأفكار عن دين الاسلام تضاربت فيما بينها باختلاف المدارس الاستشراقية (فرنسا- ألمانيا -إيطاليا ....)، وباختلاف الخلفيات الدينية للمستشرقين.

إن أهم خصائص الفكر الاستشراقي أنه فكر مستعل معتد بنفسه يجعل الشرق موضوعا للبحث والنقد ويمنح نفسه الحق في تحديد معايير الحكم على الآخر، إنه نوع من الاستبداد الفكري لا يختلف كثيرا عن النزعة الاستعمارية والاستعلاء العرقي اللذان لا يمكن فصلها عن الاستشراق. هذه العلاقة بين الاستشراق والاستعمار يمكن ملاحظتها في النفس الامبريالي الذي كتبت به كثير من كتب الاستشراق، بل إن وزارات المستعمرات في الدول الأوروبية كانت دائما توظف المستشرقين مستشارين لرسم سياساتها في الدول الإسلامية.

ونذكر من ذلك أمثلة[200] تفي ببيان مدى انسجام الفكر الاستشراقي والسياسات الاستعمارية ، فالمستشرق الفرنسي «لويس ماسينيون» عمل مستشارا لوزارة المستعمرات الفرنسية في شمال افريقيا، والمستشرق «دي ساسي» عمل في منصب المستشرق المقيم بوزارة الخارجية الفرنسية، ومثلهم المستشرقان «إرنست رينان» و «هانوتو» ... وفي روسيا نجد المستشرق «بالتورد» وفي بريطانيا «اللورد كرزن» وفي ألمانيا نجد المستشرق «كارل هينرش بيكر» وفي هولندا المستشرق «سنوك هور غرونيه» ..... ، هكذا لم يدخر المستشرقون جهدا في توجيه السياسة الاستعمارية، فيما كانت الحكومات لا تتردد في تمويل الدراسات الاستشراقية في الجامعات وفتح معاهد خاصة لها.
وعودة إلى أدبيات التنوير فإننا نجد الأثر الاستشراقي متمثلا في طريقة نقد الأصول الإسلامية كتاب وسنة، وهنا أضع بين يدي القارئ نماذج من هذا الاستنساخ غير البريء لأفكار لا علاقة لها بالشريعة الاسلامية :

-صادق جلال العظم محامي الشيطان: عندما ألّف صادق جلال العظم كتابه في نقد الفكر الديني استغرق دفاعه عن إبليس جزءا كبيرا من كتابه، يقول العظم : (يجب أن نرد له اعتباره بصفته ملاكاً يقوم بخدمة ربه بكل تفان وإخلاص!... يجب أن نكف عن كيل السباب والشتائم له، وأن نعفو عنه ونطلب له الصفح ونوصي الناس به خيراً)[201].

ولم تكن قصته هذه إبداعا جديدا بل كل ما في الأمر أنه تتبع رواية واهية نقلها الشهرستاني من الإسرائيليات، ثم أخذ الخطوط الأساسية لفكرته من بحث المستشرق «ترتون» عن الشيطان وبحث «فنسنك» عن إبليس وهما منشوران في دائرة المعارف الإسلامية[202].
وهكذا نجد أغلب الأفكار الرائجة اليوم في الاستخفاف بالإسلام ونقده مأخوذة عن العمل الاستشراقي مع محاولة إخراج هذه التخرصات مخرج البحث العلمي الجاد.

فلو أخذنا على سبيل المثال تطاول المعاصرين على القرآن الكريم فسنجد جل كلامهم يدور حول ما أثاره المستشرق الألماني ثيودور نولدكه[203] في كتابه تاريخ القرآن

---

[200] يراجع في ذلك كتاب الاستشراق في الادبيات العربية صفحة 67 وما بعدها ....
[201] صادق جلال العظم – نقد الفكر الديني ص: 129-128
[202] من كتاب «هوامش على كتاب نقد الفكر الديني" - الشيخ محمد حسن آل ياسين
[203] ثيودور نولدكه : (1930-1836) زعيم المستشرقين الألمان، حصل على الدكتوراه عام 1856م وهو في سن العشرين عن تاريخ القرآن، عين مدرساً للتاريخ الإسلامي في جامعة غوتينغن عام 1861. وأستاذ التوراة واللغات السامية في كييل عام 1864.، من اشهر مؤلفاته : تاريخ القرآن.

ومن ذلك جمع القرآن وتدوينه وتفسيره وما يتعلق بقراءات القرآن وضبطه ورسمه، وهو مرجع الناقمين على الإسلام وعمدة من جاء بعده من المستشرقين، مع أن صاحب الكتاب اعترف بضعف التدقيق فيه، بل ذكر بصريح العبارة في مقدمة الطبعة الثانية أن آثار الوقاحة الصبيانية لا يمكن محوها من الكتاب رغم عمل صديقه شفالي على مراجعة الكتاب: (...آثار الوقاحة الصبيانية لن يمكن محوها بالكلية، من دون أن يعاد تأليف الكتاب من جديد، بعض ما قلته حينذاك بقليل أو كثير من الثقة، انعدمت ثقتي به حاليا)[204].

[204] تيودور نولدكه – تاريخ القرآن مقدمة الطبعة الثانية (1/XXXI)

التوظيف السياسي

يجب استخدام الحرب الإيديولوجية كذلك، تماما كما ربحنا الحرب الباردة -جزئيا- من خلال فضح شرور الشيوعية، ستكون إدارتنا صديقة لكل الإصلاحيين المسلمين وسوف نُعلي أصواتهم

-الرئيس الأمريكي دونالد ترامب-

1)- ذراع التوسع والاستعمار:

يقدَّم التنوير على أنه حركة فلسفية فكرية تهدف إلى تحرير الانسان من قيود التقليد، وبسط سلطان العقل والتخلص من الحواجز الميتافيزيقية أمام البشر. وبما أن كل حركة فكرية وفلسفية يُنتظر منها الاجابة على تحديات الواقع الانساني في مختلف نواحي الحياة بما في ذلك الجانب السياسي، فقد كانت حركة التنوير الاوروبي حركة إصلاح سياسي بالدرجة الأولى دعت إلى نبذ الاستبداد وفتح المجال أمام الحريات، وعارضت الأنظمة الاقطاعية والطغيان الكنسي مما جعل التنوير ينفجر في وجه موانع الاصلاح على شكل ثورات.

تم توظيف التنوير بشكل كبير في غزو أوروبا خصوصا في الحرب ضد «الامبراطورية الرومانية المقدسة[205]» ودخلت فرنسا بسبب حماس الثوار ونابوليون بونابرت من بعدهم في حرب مع غالب الدول الأوروبية.

شملت حروب فرنسا الثورية بعد عام 1793م بريطانيا وهولندا واسبانيا والبرتغال وبلجيكا ومنطقة الراين وايطاليا والنمسا وغيرها من الدول، وكان للحشد الايديولوجي دور كبير من خلال سياسة التجنيد التي نهجتها فرنسا من خلال التأكيد على محاربة الانظمة الرجعية الدينية والملكية التي تدعم ظلامية الكنيسة.

ولعب التنوير أيضا دورا مهما في الحقبة الاستعمارية في بسط نفوذ الدول الغربية وإخضاع المسلمين لثقافة الدول المستعمرة، وهنا أقدم نموذجا شهيرا وهو علاقات مدير المستعمرات البريطانية اللورد كرومر[206] التي نسجها مع كثير من المثقفين المصريين مثل سعد زغلول وأحمد لطفي السيد وقاسم أمين، وقد كان لهذه العلاقات أثر كبير في تبني هؤلاء لأفكار تعادي الجامعة الاسلامية التي تجمع أقطار العالم الاسلامي، وتم توجيه هذا الفكر لجعله يتقبل الاحتلال البريطاني، كما تم تحريكه أيضا لتفكيك الرابطة الدينية في إطار سعي البريطانيين لتفكيك وإضعاف الدولة العثمانية، ففي

---

[205] الامبراطورية الرومانية المقدسة: تكتل سياسي بأراضي أوروبا الوسطى والغربية (ألمانيا، ايطاليا، هولندا، النمسا...) وُلد خلال العصور الوسطى المبكرة، وانتهى رسمياً سنة 1806

[206] سبقت ترجمته في المقدمة

هذا السياق مثلا تبنى أحمد لطفي السيد[207] أفكارا تخدم الاحتلال منها دعوته لإحلال العامية مكان اللغة العربية، ورفضه تعاطف ودعم المصريين للجيش العثماني في ليبيا، كما وظّف الصحيفة التي يرأسها (الجريدة) للدفاع عن مصالح الانجليز في مصر. أما في واقعنا اليوم فقد انصبت جهود العمل التنويري بمختلف أشكاله على نقد الدين وتحميله مسؤولية التخلف الذي تعيشه بلدان المسلمين، مع تغييب واضح للعمل السياسي خصوصا في منتصف القرن العشرين مع ظهور أنظمة قومية علمانية هي نتاج الثقافة الأوروبية نفسها وتركة الاستعمار الحداثي .

تركزت الجهود خلال هذه الفترة على نقض بعض العقائد الاسلامية مثل: التسليم للوحي، الايمان بالمعجزات، عقائد اليوم الآخر... ، وعمل هؤلاء على مسح آثار الدين من الدولة وحتى المجتمع : علمنة التشريعات، حصر الدين في المساجد، إضعاف التعليم الديني ...، وهذا ما سيؤدي لظهور تيارات معاكسة تدافع عن الهوية الاسلامية وتتبنى الموقف المعارض للعلمانية، ويصبح الصراع هنا بين تيارين: إسلامي وعلماني، وأصبح الاهتمام العملي للتيارات التي تتبنى العقلانية الأوروبية هو مواجهة التيارات الاسلامية والبنى الفكرية التي تعتمد عليها. وإذا عُلم هذا، فإن القوى الغربية لم تكن لتقف مكتوفة الايدي أمام هذه الحركية الفكرية بل سعت لتوجيهها سياسيا لصالحها من خلال دعم من تسميهم بالإصلاحيين المسلمين، وساهمت بعض الأحداث في الرفع من إيقاع التجديد الاسلامي، فقد شهد مطلع القرن الواحد والعشرين حدثين كان لهما أثر كبير في توجيه موجة الهجوم على الشريعة الاسلامية، الأول هو أحداث الحادي عشر من شتنبر 2001م في الولايات المتحدة الأمريكية وما تبعه من حملات الحرب على الارهاب التي لم تقتصر على الجانب العسكري فقط، بل عرفت أشكالا من الحروب الثقافية والدينية.

والثاني هو موجة الربيع العربي سنة 2011م وما تبعه من تغيرات سياسية في المنطقة خصوصا صعود تيارات الاسلام السياسي التي أزعجت جهات كثيرة في العالم الاسلامي. وهنا أضع نموذجا لتأثير هذين الحدثين على موجة التجديد الاسلامي أو ما يسمى بالتنوير أحدهما نموذج للعمل التجديدي المنطلق من القوى الخارجية، والآخر نموذج للتجديد الاسلامي الخاضع للأنظمة الاستبدادية العربية والموجه سياسيا من قبلها.

---

[207] أحمد لطفي السيد : (1963-1872) مفكر وفيلسوف مصري، يوصف بأنه رائد من رواد حركة النهضة والتنوير في مصر، درس على الامام محمد عبده وجمال الدين الافغاني، عمل وزيرا للمعارف ووزيرا للخارجية في حكومة اسماعيل صدقي، كما شغل منصب رئيس مجمع اللغة العربية.

1-التنوير والسياسة الخارجية الأمريكية :

نطالع سياسة أمريكا الخارجية وعلاقتها بالتجديد الاسلامي من خلال تقرير منشور على موقع معهد السلام الأمريكي[208] (USIP) تحت عنوان : (السياسة الخارجية الأمريكية والتجديد الاسلامي) بتاريخ يوليوز 2006م، كتب التقرير الدكتور عبد السلام المغراوي[209] لصالح المعهد ووصف فيه الوضع الحالي لسياسة أمريكا وختمه بمجموعة من التوصيات.
يحدد التقرير الطريقة التي يجب أن يتعامل بها الأمريكيون مع تجديد الخطاب الديني في العالم الاسلامي ومما جاء فيه :

-يجب أن تقدم الولايات المتحدة منحا خاصة للجامعات الأميركية بغية النهوض بأعمال وأفكار التحديث الإسلامي وترجمتها إلى سياسات ملموسة، إن مفكري التحديث الإسلامي منتشرون في العالم وعندما يتلاقون في مناسبات نادرة فإن مناقشاتهم ومداولات اجتماعاتهم لا تترجم إلى سياسات إصلاح عملية. ومن الضروري بمكان إنشاء منتديات إقليمية يجتمع فيها مفكرو التحديث الإسلامي بانتظام للبت في الاختلافات السياسية والفلسفية والعقائدية، وتقرير قواسم مشتركة وأهداف مشتركة. ولا يكفي حشد دعاة التحديث لكي يعبروا عن أنفسهم، فمن المهم تحديد سياسات إصلاحية معينة تنشر على الشعوب والحكومات في العالم الإسلامي، وكذلك على المجتمع الدولي بما في ذلك الدول الغربية والأمم المتحدة، ومنظمة المؤتمر الإسلامي، ومحكمة العدل الدولية، والبنك الدولي.
-يجب أن تتضمن مبادرات الديمقراطية الإصلاح الديني، فالمنظمات مثل المعهد الديمقراطي الوطني والمؤسسة الوطنية من أجل الديمقراطية يجب -إذا كان ذلك مسموحا لها- أن توسع من برامجها فيما وراء الانتخابات والأحزاب السياسية والبرلمانات. وليست هناك في شروط تكليفها ما يمنعها من مساندة التدريب على أسس حديثة للدارسين الدينيين والقضاة والأئمة، مع تقديم منح خاصة للنساء اللواتي يدرسن موضوعات دينية، وإعادة طبع ونشر كتابات علماء التحديث الإسلامي. ويجب أن تدعم الولايات المتحدة المجموعات المحلية التي تقود هذه الإصلاحات.

---

[208] معهد السلام الأمريكي: (USIP) هو مؤسسة فيدرالية أمريكية تأسست سنة 1984م مكلفة بحل النزاعات والوقاية منها في كل أنحاء العالم، ويوفر برامج البحث والتدريب ، وتتكون إدارة المعهد من خمسة عشر عضوا بينهم وزير الدفاع ووزيرة الخارجية ورئيس جامعة الدفاع الوطني .

[209] عبد السلام المغراوي: أستاذ العلوم السياسية وعضو هيئة التدريس بمركز ديوك للدراسات الاسلامية ومركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة ديوك، وتركز أعماله على مواضيع الديموقراطية والسياسة في الشرق الأوسط وكذا دور الدين واللغة في الحياة العامة.

-يجب أن تركز الولايات المتحدة بدرجة أكبر على الإصلاحات الاجتماعية والتعليمية والدينية الجوهرية، ويعد إجراء الانتخابات الوطنية أساسيا للسلطة التشريعية والتنفيذية الديمقراطية، ولكن هذه الممارسة إذا جُرّدت من القضايا الجوهرية فسوف ينتج عنها عملية رسمية سطحية يتلاعب بها الحكام شبه الاستبداديين والإسلاميين الراديكاليين..... غيرأن المهم بالمثل هو الحاجة إلى قيام حكومة الولايات المتحدة بتشجيع الإصلاحات الدينية، وذلك لتحديث المبادئ والتعاليم الدينية والمؤسسات والممارسات الدينية والفقه الديني. ويتمثل حجر الزاوية لهذه الإصلاحات في الجهد الرامي لتوسيع الحدود المفاهيمية وأسس الشريعة فيما وراء القرآن والسنة، أو ما يعتبره المسلمون الدعامة الجوهرية للإسلام. بعبارة أخرى، من المهم وضع سياسة مفادها أن الاجتهاد كان مصدرا رئيسيا لصياغة القانون الإسلامي.

وهذه حجة مهمة في تبرير التطورات الحديثة في حقوق المرأة والحقوق المدنية وحقوق الإنسان، وقبول الاختلافات الثقافية والدينية على أسس إسلامية)[210]. ومن هنا تتضح معالم السياسة الامريكية فيما يتعلق بالتجديد الديني وهي قائمة على أمرين: التمويل والتوجيه، إذ يتم تمويل المؤتمرات التي تجمع دعاة التجديد و تدريب الباحثين الدينيين والعمل على تحديث المبادئ والتعاليم الدينية، وتوضع السياسات التي تعمم على الدول الاسلامية بالإضافة إلى التكفل بطبع وترويج الكتب والتعاون المشترك مع الجماعات التي تقود تغيير المفاهيم الدينية.

ولم تتخلف السياسة الغربية في دعم تغيير أحكام الشريعة من بوابة الاصلاح الديني بل كان دعم تيارات التجديد دائما حاضرا في السياسات الخارجية، حتى الرئيس الأمريكي دونالد ترامب المعروف بصداميته أشار إلى تبنيه لما سماه الحرب الايديولوجية ودعم الاصلاحيين المسلمين في أحد خطابات ترشحه للرئاسة : (يجب استخدام الحرب الإيديولوجية كذلك، تماما كما ربحنا الحرب الباردة، جزئيا، من خلال فضح شرور الشيوعية .... وستكون إدارتنا صديقة لكل الإصلاحيين المسلمين وسوف نُعلي أصواتهم)[211].

---

[210] مختصر من التوصيات المرفقة بالتقرير من موقع المعهد الامريكي للسلام : https://www.usip.org

[211] مقتطف مترجم من خطاب الرئيس الأمريكي دونالد ترامب : https://assets.donaldjtrump.com/Radical_Islam_Speech.pdf

كما لا يخفى سعي الدول الكبرى والمؤسسات الدولية إلى فرض نفوذها من الضغط باستخدام ورقة الأقليات وتشجيعها لاستنبات أقليات جديدة، والتظاهر بالدفاع عن الحريات الفردية بما في ذلك حرية المعتقد.

وفي هذا المجال أيضا تنشط مؤسسة راند الأمريكية[212] وهي التي تولت الترويج لمفهوم «الاسلام المعتدل»، حيث أصدرت المؤسسة سنة 2007 تقريرا تحت عنوان «بناء شبكات إسلامية معتدلة» يوصي فيه بدعم التيارات العلمانية والعصرانية التي تتبنى الاسلام الموافق للتوجهات الامريكية.

وكشف تقرير راند عن الدور الكبير الذي تقوم به الوكالة الدولية للمعونة الأمريكية USAID لدعم التيارات العلمانية في مواجهة الاسلام.

يقول انجل راباسا[213] أحد المحللين السياسيين المعتمدين لدى مؤسسة راند: (إننا لا نستطيع التدخل كبلد أجنبي غير مسلم لمواجهة إيديولوجية المتطرفين، على المسلمين القيام بهذه المهمة بأنفسهم، ولكن ما يمكن أن نقوم به هو تمهيد أرضية الملعب لتقوية المعتدلين)[214].

وسبَّب هذا التمويل الأمريكي موجة من النقد والتشكيك في الأصول الاسلامية من خلال وسائل الاعلام الحديثة، نلاحظ هذا مثلا في الموقع الالكتروني لقناة الحرة وموقع أصوات مغاربية[215] حيث تنشط هذه المواقع في التهجم على التراث الاسلامي ونشر أفكار منحرفة عن الاسلام مثل التشكيك في الشعائر الاسلامية والطعن في كتب السنة وغير ذلك...

---

[212] مؤسسة راند : منظمة غير ربحية وخلية تفكير أميركية تأسست في الأصل عام 1948 من قِبَل شركة طائرات دوغلاس لتقديم تحليلات وأبحاث للقوات المسلحة الأميركية، تمول أبحاثها من وكالات حكومة الولايات المتحدة الامريكية والشركات الخاصة وغيرها.

[213] : انجل راباسا: محلل سياسي لدى مؤسسة راند ومؤلف العديد من الكتب حول الارهاب والتطرف الاسلامي، وعمل سابقا في الادارة الامريكية ووزارة الدفاع.

[214] نقلا عن الدكتور باسم خفاجي: استراتيجيات غربية لاحتواء الاسلام، قراءة في تقرير راند

[215] جاء في الموقع الرسمي لأصوات مغاربية التعريف التالي : أصوات مغاربية» منصة رقمية غير تجارية تُجدّد على مدار الساعة وتهتم بتغطية القصص الإنسانية في البلدان المغاربية. وهي تابعة لشبكة الشرق الأوسط للإرسال MBN، التي تدير أيضا قناة «الحرة» و»راديو سوا"، وهي مؤسسة لا تبغي الربح، يمولها الكونغرس الأميركي من خلال هبة مقدمة من الوكالة الأميركية للإعلام الدولي USAGM وهي هيئة فيدرالية مستقلة. تشرف هذه الوكالة على "أصوات مغاربية" وتُحافظ على استقلالية عملها الإعلامي.

ومن نماذج العمل الغربي أيضا تنظيم مؤتمرات التجديد الديني فقد احتضنت فرنسا مؤتمرا عن (سبل تجديد الخطاب الديني) نظمه مركز القاهرة لدراسات حقوق الانسان[216] بتمويل من الاتحاد الأوروبي وحضرته شخصيات كثيرة من العالم الاسلامي من مصر وتونس والسودان ولبنان والمغرب[217]، وتوج المؤتمر بإعلان باريس الذي جاء بعدد من التوصيات منها هذه الفكرة الأوروبية اللوثرية :

-إن التجديد الديني غير محصور في رجال الدين بل يشمل المجتمع ككل خاصة قطاعات الابداع (كتاب وفنانون) ، الاعلام ،التربية والتعليم ، الاحزاب ، النقابات ومؤسسات المجتمع المدني، أساتذة الجامعة فضلا عن رجال العلم والتعليم الديني أنفسهم[218].

2-التنوير والأنظمة العربية:

منذ جلاء الاستعمار العسكري الأوروبي تولت حكم البلدان الاسلامية أنظمة سياسية تتخذ مخرجات الحداثة الأوروبية مرجعية لها، سواء من خلال تبني فكرة القومية العربية أو الاشتراكية أو بشكل عام نهج طريق الحداثة الأوروبية من خلال تحديث هيكلة الدولة وإقصاء الدين عن التأثير على الشأن العام، حدث هذا في مصر وسوريا وتونس وتركيا وغيرها...، فكان من الطبيعي أن تعمد هذه الأنظمة إلى دعم جملة من الأفكار التي تهدف إلى عزل الاسلام وحصره في أماكن ضيقة، وتوفر الظروف الملائمة لنشر هذه الأفكار عبر الإعلام بكل أشكاله المرئي والمسموع والمكتوب. لكننا هنا سنترك تيارات القومية العربية والاشتراكية التي تراجعت قوتها مع نهاية القرن العشرين، وسنتطرق لنموذج نشيط حاليا في نقد الاسلام وتحت رعاية نظام سياسي له أهدافه ومقاصده الخاصة. تأسست مؤسسة مؤمنون بلا حدود سنة 2013م تزامنا مع موجة الثورات المضادة للربيع العربي، وجمعت عددا من الباحثين من الدول العربية خصوصا مفكري الحداثة واليسار الاسلامي، وتنشط في المغرب وتونس ومصر من خلال عقد اللقاءات والندوات والمحاضرات وإعداد مشاريع بحثية بالإضافة الى ورشات تكوينية.

---

[216] مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان : منظمة غير حكومية إقليمية مستقلة تأسست عام 1993، تهدف إلى دعم احترام مبادئ حقوق الإنسان والديمقراطية، وتحليل صعوبات تطبيق القانون الدولي لحقوق الإنسان، ونشر ثقافة حقوق الإنسان في العالم العربي، وتعزيز الحوار بين الثقافات في إطار الاتفاقيات والمواثيق الدولية لحقوق الإنسان.

[217] شارك من المغرب ادريس اليزمي رئيس المجلس الوطني لحقوق الانسان.

[218] مقتطف من إعلان باريس.

ولاتخطئ العين في موقعها الالكتروني هجومها الشديد على التيارات الاسلامية خصوصا ما نسميه تيارات الاسلام السياسي، وعلى هذه النقطة مدار منشوراتها منذ التأسيس. ومع التمويل الاماراتي كان لافتا في منشورات المؤسسة السعي لتقويض الأسس الفكرية لتيارات الاسلام السياسي من خلال انفتاحها على كل الجهات التي تحترف نقد الاسلام ولو انتسبت للإلحاد أو التشكيك في أصول الاسلام مثل السوري صادق جلال العظم والتونسي محمد المزوغي وجورج طرابيشي وهشام جعيط وعلي مبروك!! بالاضافة إلى كتاب آخرين ينكرون السنة ويؤولون القرآن مثل محمد شحرور ومحمد الطالبي وغيرهم... ويحفل موقع المؤسسة على الشبكة بمقالات تشكك في أصول الاسلام بدءا من التشكيك في الوحي[219] وتلقي النبي صلى الله عليه وسلم للقرآن، ثم التشكيك في تدوين القرآن والتماهي مع مزاعم وقوع النقص والزيادة فيه[220]. وتعمل المؤسسة كذلك من خلال مركز دال[221] التابع لها وينشر عبر صحيفة إلكترونية (حفريات)[222] ويعتمد أسلوبا هجوميا ضد التراث الاسلامي ويساير الفكر الالحادي في التشكيك في الاسلام، كما يتخذ موقفا سياسيا معارضا تجاه خصوم دولة الإمارات العربية المتحدة: تركيا، قطر، تيار الاخوان المسلمين... ولهذه الأغراض أيضا تفتح بعض الدول العربية قنواتها الفضائية لترويج نوع معين من دعاة التجديد الاسلامي عبر برامج خاصة مثل محمد شحرور وعدنان ابراهيم مقابل الحصول على نوع من التلميع والاطراء لأنظمتها السياسية.

وفي خضم هذا الصراع المحموم تستخدم المؤسسة والمركز التابع لها عقائد الاسلام وشعائره حطبا في معركة جوهرها سياسي وغطاؤها ديني فكري، فتنحرف المفاهيم الشرعية ويشكك في العقائد الاسلامية تحت ضغط السياسة وبريق الأموال.

---

[219] انظر مثلا مقالا ليوسف هريمة على موقع المؤسسة بعنوان: (الحداثة والقرآن للدكتور سعيد ناشيد)، وفيه تصريح واضح ببشرية القرآن الموجود بين أيدينا وأنه مختلف عن الوحي الرباني! وتوجد مقالات أخرى على الموقع تنحو نفس المنحى في تكذيب القرآن.

[220] انظر مقالا مقالا لباسم المكي بعنوان: (من القرآن إلى المصحف لجلال الرّبعي)، وفيه تصريح بوقوع النقص والنسيان والضياع في نسخ المصحف.

[221] مركز دال: مركز بحثي تابع لمؤسسة مؤمنون بلاحدود ينشط في مصر، ويسعى لتغيير وعي الواقع المصري من خلال تحويل المعلومات إلى مواد مرئية تنشر عبر وسائل التواصل الاجتماعي.

[222] جاء في موقع الصحيفة التعريف التالي: حفريات» صحيفة إلكترونية فكرية ثقافية تسهم في تفكيك خطاب التطرّف والكراهية المنبثق عن جماعات الإسلام السياسي، من خلال إماطة اللثام عن الآليات والأدبيات التي يعمل بها ذلك الخطاب، والديناميكيات التي ترفده وتغذيه.

وأخير أشير إلى مدخل من مداخل العمل الالحادي وهو الاتكاء على المنظمات الحقوقية وإخراج «التبشير الالحادي» مخرج الدفاع عن الحريات وحقوق الانسان، لذلك نجد كثيرا من المنظمات الحقوقية تجمع في عضويتها ألوانا من الملاحدة واللادينيين، وتعمل على حماية الملاحدة وتمكينهم من نشر انحرافاتهم وشذوذهم، ونضع مثالا لها منظمة أدهوك ADHOC وهي منظمة إلحادية دولية غير حكومية مقرها في لندن ولها فروع في مختلف دول العالم، تقدم نفسها على أنها منظمة لنشر الثقافة المدنية والتعددية وفصل الدين عن السياسة، وتجمع شتات الملاحدة والزنادقة في العالم العربي سواء من المفكرين الأكاديميين أومن مدوني مواقع التواصل الاجتماعي، وتقدم لهم الدعم والتأييد. وترأس هذه المنظمة الحقوقية السورية راندا قسيس[223] ولها علاقات مع الدوائر السياسية في كل من فرنسا وروسيا، وفي عضوية المنظمة أيضا المدون الفلسطيني وليد الحسيني الذي اعتقل في فلسطين بسبب تهجمه على النبي محمد صلى الله عليه وسلم بألفاظ بذيئة، وقد احتشدت المنظمات الحقوقية الدولية حينها للدفاع عنه (هيومن رايتس ووتش، جو ستورك..)، بل وصل الأمر لتدخل وزير الخارجية الفرنسي وتعبيره عن قلقه إزاء حرية التعبير بالأراضي الفلسطينية !! وتضم المنظمة أيضا المدون المغربي قاسم الغزالي داعية الحرية الجنسية ومؤسس حركة (مصايمينش) التي تدعو إلى الافطار العلني في رمضان، وقد أصبح مندوبا رسميا لدى الأمم المتحدة يدافع عن حقوق المثليين والملاحدة !!

وتستضيف المنظمة في أنشطتها جمعا من الملاحدة في العالم العربي مثل السوري أدونيس والمصري سيد القمني والكاتبة التونسية ألفة يوسف والمغربي سعيد ناشيد والمصري حامد عبد الصمد وغيرهم .

[223] راندا قسيس: حقوقية وسياسية سورية، رئيسة منصة آستانا السياسية، ورئيسة حركة المجتمع التعددي والرئيسة السابقة للهيئة العامة للائتلاف العلماني الديمقراطي السوري.

العودة إلى الوثنية

إن تقدم مذاهب الأحرار ليشجع على الأمل بأن العقل البشري سيعود في يوم ما إلى الحرية التي كان ينعم بها قبل ألفين من السنين

-من مذكرات الرئيس الامريكي توماس جفرسون-

إن أكبر ما بنيت عليه دعوات الانبياء والرسل على مر التاريخ هو الدعوة إلى عبادة الله وتوحيده، ونبذ الانحطاط إلى درك الشرك والوثنية ، وتحرير العقل من آفة التعلق بالأصنام شجرا كانت أو حجرا أو بشرا ...، لذا كان الوحي الإلهي طريق البشرية نحو الخروج من ظلمات الوثنيات إلى أنوار التوحيد ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد.
وإن الانسان مهما علا شأنه واعتدّ بعقله أمام براهين الوحي فإنه يؤول إلى نوع من الوثنية ولو ألبست ثوب العقل والتحرر، فوساوس الشيطان تأبى إلا أن تغمس الانسان في أوحال الكفر بالخالق العظيم، ويزين الشيطان للإنسان الاعتداد بعقله ليتمرد على الوحي وينصب هواه إلها يعبد من دون الله : (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)[224].
والوثنية بمفهومها الشرعي هي كل عبودية لغير الله، وهي بهذا المعنى شيء واحد وإن تعددت صورها وتجلياتها في الواقع، ولما كان التدين ضرورة إنسانية كان لابد أن تنشأ أديان أخرى بعد إسقاط كل دين حقا كان أو باطلا، وهذا الهوى ما يلبث أن يتجسد في شكل آلهة وثنية تعبد من دون الله. واجه الأوروبيون دينهم الكنسي وتغوّله بالعودة إلى تراث اليونان، فلم تخل فلسفاتهم من تأثير الأساطير اليونانية ولم تخل عقلانيتهم من تأثير الفلسفة اليونانية، بل نجد بعضهم مثل ديدرو يرى أن الانسان البدائي كان أكثر حرية قبل أن تقيده القوانين الدينية والاخلاقية.

وعلى طول الفترة التي تشكلت فيها الحداثة الغربية ظهرت عقائد علمانية في السياسة والاقتصاد وأخرى في الثقافة والفنون تحول بعضها إلى ديانات لها طقوسها الخاصة ....، وإن حاولت الابتعاد عن الاشكال التقليدية للأديان.

يصف الفيلسوف الفرنسي كوستاف لوبون[225] نموذجا من واقعه لأناس انسلخوا عن الدين ليتعلقوا بأفكار غيرهم بهذه القصة الطريفة : (أشرق ذات يوم نور العقل على ذلك العدمي، فعمد إلى صور الآلهة والقديسين التي كانت تزين أحد المعابد وحطَّمها، وأطفأ الشموع ووضع مكان الصور بعض مؤلفات الفلاسفة الذين لا يعتقدون مثل "بوخنر" و "مونشيت" ، ثم أوقد الشموع حول هاتيك الكتب ... فمحل اعتقاده الديني كان قد تبدَّل لكن مشاعره الدينية ما تبدلت أبدا)[226].

---

[224] سورة الجاثية الآية 23
[225] كوستاف لوبون : (1931-1841) طبيب ومؤرخ فرنسي عمل في أوروبا وآسيا وشمال أفريقيا، كتب في علم الآثار وعلم الانثروبولوجيا، وعني بالحضارة الشرقية. من أعماله: حضارة العرب، حضارات الهند
[226] كوستاف لوبون – روح الاجتماع- ترجمة أحمد فتحي زغلول، ص: 55

1)- وثنيات تنويرية على أنقاض الكنيسة:

بعد أن قام الثوار الفرنسيون بإبادة النظام الملكي والكنيسة الكاثوليكية، أنشأ ماكسيميليان روبسبيير[227] ديانة جديدة جعلها الديانة الرسمية للجمهورية الفرنسية، وسيرا على فكرة فولتير اخترع الفرنسيون إلها جديدا : (l'Être suprême)، كان الإله الجديد (الصنم) تعبيرا عن سلطة القانون وسعيا من الثوار لمنح الثورة سلطة شرعية مطلقة، وتم إنشاء الأعياد والاحتفالات.

تم تحويل العديد من الكنائس إلى ما عرف بمعابد العقل وتبنى الساسة الجدد هذه العقائد، وفي السابع من نوفمبر 1973 أقيمت الاحتفالات حول تماثيل فولتير وروسو وفرانكلين ...

وتمّ رسميا إقرارهذه الديانة الجديدة في 7 ماي 1794 ديانة مدنية لفرنسا، إلا أن هذه الديانة لم تستمرمع إلقاء روبيسبيير بدوره إلى المقصلة، وبعد انقلاب نابوليون بونابرت تم التخلي عنها، تقول الكاتبة البريطانية كارين أرمسترونغ[228]:

)من المثير للسخرية، أنه ما إن قام الثوار بتخليص أنفسهم من دين واحد (الكنيسة) ، حتى اخترعوا دينا آخر، كانت آلهتهم الجديدة هي الحرية والطبيعة والأمة الفرنسية، التي كانوا يعبدونها في مهرجانات متقنة صممها الفنان جاك لويس ديفيد[229]، وفي نفس العام توّجت آلهة العقل على مذابح كتدرائية نوتردام وأدّى عهد الإرهاب إلى إغراق الأمة الجديدة في حمام دم غيرعقلاني)[230].

كما حاول رائد الفلسفة الوضعية أوجست كونت صناعة دين علماني إلحادي جديد يقوم مقام النصرانية ويتّخذ الانسان إلها، فقام بوضع دين جديد سماه «دين الإنسانية» سعيا منه إلى إنشاء منظومة أخلاقية علمانية، صنع أصولا وعقيدة، وحتى تقويما للأشهر بأسماء شخصيات شهيرة، ووضع طقوسا وكهنوتا جديدا، واتخذ أعيادا

---

[227] ماكسيميليان روبيسبيير: (1758 - 1794)، محامي وزعيم سياسي فرنسي، أصبح أحد أهم الشخصيات المؤثرة في الثورة الفرنسية، وأحد الوجوه الرئيسية لعهد الإرهاب.

[228] كارين أرمسترونغ: مؤلفة بريطانية لعدة كتب في مقارنة الأديان حصلت على دكتوراه الفلسفة من جامعة أوكسفورد، كانت راهبة كاثوليكية لكنها تركت الكاثوليكية.

[229] جاك لويس ديفيد: رسام فرنسي، وأحد أبرز فناني مدرسة الكلاسيكية الجديدة، كان دافيد من الذين دعموا الثورة الفرنسية بشكل كبير.

[230] مترجم من مقال للكاتبة على جريدة الغرديان.

لتكريم العظماء عبر التاريخ، استنسخ فكرة الثالوث الكنسي وصنع ثالوثا جديدا: الموجود الأعظم (الانسانية) والوسط الأعظم (السماء أوالهواء) والفيتش الأعظم (الأرض)[231]، وتم بناء «كنائس الأخلاق» في فرنسا والبرازيل ودول أخرى...

وخرجت من عباءة هذه الديانة الوثنية حركات أخلاقية أكثر بعدا عن الطقوس الدينية في أمريكا وبريطانيا حاولت صناعة نوع من الأخلاق العلمانية بعيدا عن الأديان...

لكن هذا الدين لم يجد فرصة للانتشار أمام ظلم التاريخ -كما يقول مناصروه- بسبب ظهور فلسفات أقوى كالماركسية والداروينية، يقول المؤرخ الانجليزي أرنولد توينبي[232]: (إن افتقار المرء للدين يدفعه إلى حالة من اليأس الروحي تضطره إلى التماس فتات العزاء الديني على موائد لا تملك منه شيئا ولقد حاول بعض الفلاسفة إحلال أهداف بديلة عن الدين كفكرة دين الإنسانية لدى أوجست كونت ولكنها بدت عقيدة باهتة ممسوخة ومن ثَمَّ لم تلق قبولا).

اتخذت هذه الفلسفات الجديدة التي ظهرت بقوة شكلا عقديا، وقد أطلق اسم الدين السياسي لأول مرة من طرف الألماني هانز ماير لوصف نوع من العقائد غير الدينية مثل البلشفية والفاشية والقومية الاشتراكية. فعقد مقارنات وتحليلا لكيفية تشكل هذه الإيديولوجيات ثم كيف تتحول إلى آليات تعطي الشرعية للدولة، بالإضافة إلى المماثلة بين الشعائر الدينية والطقوس الايديولوجية مثل: تمجيد الزعماء، النصب التذكارية، طقوس الولاء، إحياء ذكرى الآباء المؤسسين، التضحية والموت في سبيل العقيدة.

لم تقتصر هذه التحولات إلى الوثنية على القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بل استمر الاشكال قائما : ماذا لو أسقطنا كل الأديان ؟ ما هو البديل ؟

تظهر هذه الحيرة الشديدة عند ليون تروتسكي[233] أحد زعماء الإلحاد الشيوعي ومؤسس الجيش الأحمر في كتابه (الثورة والحياة اليومية)، فبعد أن وصل الإلحاد الى الحكم في روسيا باسم الشيوعية بدأ العمل على إلغاء الأديان، لكن بعد العنف الموغل

---

[231] العلمانيون والقرآن الكريم – أحمد الطعان

[232] أرنولد توينبي: (1975-1889) مؤرخ وفيلسوف بريطاني، أهم أعماله موسوعة دراسة للتاريخ، وهو من أشهر المؤرخين في القرن العشرين.

[233] ليون تروتسكي: (1940-1879) ماركسي بارز وأحد زعماء ثورة أكتوبر في روسيا عام 1917، إضافة إلى الحركة الشيوعية العالمية في النصف الأول للقرن الماضي ومؤسس المذهب التروتسكي الشيوعي بصفته إحدى فصائل الشيوعية الذي يدعو إلى الثورة العالمية الدائمة، شغل عدة مناصب منها وزارة الدفاع ووزارة الخارجية.

في الوحشية لاستئصال الفكر الديني لا زالت هناك إشكالات يجب التعامل معها .
يفترض تروتسكي أنه يمكن التخلي عن المعتقدات والطقوس الدينية فيما يتعلق بأمور الدولة، ويمكننا مواجهة الخرافات الدينية بالنقد الماركسي العقلي، ولكن الإشكال أساسا يأتي من الأسرة فهي مجتمع منعزل عن الدولة ، (لقد بات للدولة العمالية أعيادها، ومواكبها، واستعراضاتها العسكرية، واحتفالاتها، وعروضها الرمزية، وأُبهتها المسرحية، صحيح أن هذه الأخيرة تذكر إلى حد بعيد بمسرحية الماضي، وتقلدها، بل لا تعدو أحيانا أن تكون استمرارا لها، غير أن جوهر الرموز الثورية جديد، واضح وقوي: العلم الأحمر، المنجل والمطرقة ، النجم الأحمر، العامل والفلاح، الرفيق، والأُممية، والحال أن هذه الرموز الجديدة تكاد تكون منعدمة الوجود داخل الخلية العائلية المنطوية على ذاتها، أوعلى الأقل ضعيفة التأثير)[234] ، كيف يمكن عزل الاسرة عن الدين فيما يتعلق بالولادة والزواج والوفاة ؟ كيف يمكننا الاحتفال بمولود جديد ؟ وكيف يمكننا الفرح بزفاف قريب؟ وكيف يمكننا تكريم صديق لقي حتفه ؟ كيف يمكننا التعامل مع رتابة حياتنا اليومية ؟

يجيب تروتسكي : (حياة الشغيلة رتيبة أكثر مما ينبغي (متماثلة أكثر مما ينبغي)، ورتابتها وحدها كفيلة بإنهاك الجهاز العصبي، من هنا الحاجة إلى الكحول : ففي زجاجة صغيرة عالم من الصور)[235]، ثم يقرر أن الأعياد العمالية والاستعراضات العسكرية واعتماد الرموز الجديدة (العلم الأحمر، المنجل والمطرقة، النجم الأحمر، العامل والفلاح، الرفيق، والأممية)، ثم يقترح سلاحا جديدا ضد الكنيسة : (ان السينما تنافس الخمارة، بل تنافس الكنيسة أيضا، وقد تكون هذه المنافسة قاضية بالنسبة إلى الكنيسة إذا ما أكملنا انفصال الكنيسة عن الدولة الاشتراكية بقران هذه الدولة الاشتراكية مع السينما).
لكن المزعج بالنسبة لتروتسكي هو الموت : (لكن يبقى الدفن مصدر المتاعب الأعظم، فإن دفن ميت دون تلاوة صلاة عليه شيء غير مألوف، غريب ومخجل)[236]، ثم يقترح الحل الشيوعي الوثني : تعليق العلم الأحمر، عزف النشيد الثوري، إطلاق الرصاص تعبيرا عن الحزن ، ومن الطريف أن تروتسكي ذكر في كتابه هذا أن بعض أصدقائه الثوريين أقترحوا حرق جثث الثوار البارزين وترميدهم تخليدا لذكراهم مع أن هذا استنساخ لطقوس من ديانات وثنية ! ولكن ما دام الأمر سيساعد في مواجهة الكنيسة فلا بأس –حسب تروتسكي في كتابه-.

---

[234] من كتاب الثورة والحياة اليومية – ليون تروتسكي (نسخة رقمية)
[235] المصدر السابق.
[236] المصدر السابق

في المعسكر الآخر بعيدا عن الشيوعية قدم عالم الاجتماع الأمريكي روبرت نيلي بيلا[237] تصوره عن الدين المدني الجديد لأمريكا سنة 1967 كنوع من الإيمان المشترك للأمة الأمريكية، واستعمل هذا المصطلح كثيرا لوصف القيم الأمريكية المشتركة والمستمدة من التاريخ الأمريكي بدءا من الثورة الأمريكية .

ومع التدين الشديد لشريحة كبيرة من الأمريكيين فإن معالم الديانة الجديدة قد جاءت بصيغة بروتستانتية متحررة مع الحفاظ على الفكرة الأساس التي انبنت على فكرة جون جاك روسو في ضرورة إيجاد دين مدني يحل مكان الكنيسة وكذا على فكرة «الإيمان المشترك» لجون ديوي[238].

ويرى عالما الاجتماع رونالد ويمبرلي وويليام سواتوس أن الدين المدني صار واقعا ثقافيا تشكل نتيجة الحاجة إلى صهر الأمريكيين في رابطة تجمعهم باعتبارهم تجمعا من المهاجرين .

وتتابع العديد من المفكرين الأمريكيين على تحديد ودراسة معالم هذا الدين المدني من حيث الثقافة التي تشكلت عند الأمريكيين، أماكن مقدسة: أضرحة واشنطن وروزفلت...، النصوص المقدسة: إعلان الاستقلال، خطاب لينكولن، الترانيم التي تمجد الأمة، الاحتفالات الوطنية .

ومع موجة الإلحاد الجديد بدأت تظهر فكرة معابد الملحدين، ورغم أن عبارة "معابد الملحدين" تحمل في تركيبها سخرية لغوية بسبب تنافر شطريها، إلا أن الكاتب والفيلسوف آلان دو بوتون[239] دعا إلى إنشاء معابد للملحدين تعبيرا عن قيم المحبة والتسامح، ومحاولة منه لتصحيح الصورة التي تشكلت عن الإلحاد المعاصر بسبب العدوانية تجاه الدين التي ظهر بها دعاة الإلحاد مثل دوكينز وهتشنز.

---

[237] روبرت نيلي بيلا: (2013-1927) عالم اجتماع أميركي، وأستاذ فخري في جامعة كاليفورنيا، بيركلي. كان معروفاً على الصعيد الدولي لأعماله في مجال علم اجتماع الدين، حصل على درجة البكالوريوس والدوكتوراه في علم الاجتماع من جامعة هارفارد.

[238] جون ديوي: (1952-1859) فيلسوف وعالم نفس أمريكي وزعيم من زعماء الفلسفة البراغماتية، ويعتبر من أوائل المؤسسين لها.

[239] آلان دوبوتون: (1969) فيلسوف ومؤلف بريطاني سويسري تهتم أعماله بالحياة اليومية المعاصرة والحب والسعادة، وحققت كتبه أرقام مبيعات كبيرة.

المعبد عبارة عن برج يتناسب طوله مع عمر الأرض مبني من أنواع من الحجارة من عصور مختلفة تعبيرا عن التاريخ الجيولوجي للأرض ويزينه شريط من الذهب يرمز لزمن ظهور الإنسان على الارض.

وقبل ذلك كانت مجموعات صغيرة من الملحدين في تسعين مدينة حول العالم قد بدأت إحياء طقوس شبيهة بالطقوس الكنسية بحثا عن رابطة تجمع الملاحدة.

2)-انتقال الوثنية إلى التنوير العربي:

لن يختلف الأمر كثيرا في العالم الاسلامي رغم صعوبة ظهور وثنية بالمعنى المتداول بسبب الواقع السياسي وحساسية العقيدة الاسلامية ضد الوثنية. إضافة إلى التقية الفكرية التي ينهجها كثير من مفكري التيار التنويري. إن عقائد الحلولية التي ينزع إليها كثير من كُتاب هذا التيار ليست سوى نوع من الوثنية المغلفة، فهي محاولة لمزج عقائد الحلولية الصوفية التي هي نوع من الفساد العقدي الخطير مع وحدة الوجود على طريقة سبينوزا والتي ليست سوى إلحاد مادي صريح ! ولوعدنا إلى التعريف الذي ذكرناه سابقا للإلحاد وهو (الإيمان بأن سبب الكون يتضمنه الكون في ذاته وأن لاشيء ثمة وراء هذا العالم)، فسنجد أن هذا التعريف الذي وضعه الملحد اسماعيل أدهم هونفسه التصور المادي لفكرة الحلول عند باروخ سبينوزا، وهو يجسد وثنية ترى في المادة خالقا ومدبرا لهذا العالم.

وهكذا نجد تعظيم التنوير الغربي يجعل أفكاره تحل محل العقيدة الاسلامية، نجد مثلا محمد أركون يماثل بين البعثة النبوية والثورة الفرنسية ويجعل الأخيرة قاضية على الخطاب النبوي وناسخة لفكرة «الله» التاريخية بعد أن أعطت هذه الثورة السيادة للعقل البشري[240]، وبقليل من التحذلق يحول حقائق شرعية إلى عقائد إلحادية فيجعل ختم الرسالات فكرة شرعية تؤسس لتحرر البشرية من سلطان السماء، ليتأله الإنسان وننتهي إلى فكرة السوبرمان عند الملحد نتشه ! وبنفس الطريقة نجد حسن حنفي يجعل اسم الجلالة «الله» وصفا للإنسان نفسه !! وبسبب تعظيم التراث الوثني وبغض التراث الاسلامي يعود داعية الحداثة (علي أحمد سعيد) إلى جذوره الفينيقية ليسمي نفسه (أدونيس) على اسم إله وثني

[240] من كتاب محمد أركون – قضايا في نقد العقل الديني

حسب الخرافات اليونانية. لكنني أقترح هنا نموذجا غريبا حدّ السخرية وهو مقال للكاتب المغربي سعيد ناشيد الذي يقدم نفسه تنويريا مسلما وهو بعنوان (البشريّة في منعطفها الأخير نحو الألوهيّة)[241] ، ينطلق الكاتب من أسطورة برومثيوس اليونانية ليخلص إلى أن الفرق بين البشر والآلهة ينحصر في ثلاثة فروق فقط، أولها أن البشر يسكنون الأرض بينما الآلهة تسكن السماء، وثانيها أن البشر يفنون بينما تخلد الآلهة، وثالثها أن قدرة البشر على الإدراك محدودة بينما قدرة الآلهة لا محدودة. من هذا التصور الفاسد لمعنى الإله على الطريقة الوثنية اليونانية يمضي الرجل باحثا عن طريقة لتجاوز هذه العقبات الثلاث، ويرى أن البشر بالفعل قادرون على التحول إلى آلهة، بل من الضروري فعل ذلك خصوصا بعد أن قتل نتشيه الإله وأصبح مركز السيادة على الأرض شاغرا ! ثم ينتقل ناشيد إلى الجانب العملي لهذا التحول ويقترح ثلاث مسائل إجرائية مطلقا العنان لخياله وأوهامه، يقول ناشيد : (-إذا استطاع الإنسان أن يهاجر للعيش في السّماء فسيكون قد دخل في بداية المنعطف الأخير نحو الألوهيّة. في العقود القليلة القادمة ستكون الخطوات الحاسمة نحو بدء الانتقال للعيش في السّماء قد تحقّقت.

- إذا استطاع الإنسان أن يرفع معدّل عمره إلى عدّة قرون، وربّما يتّجه نحو الخلود، ولو في أشكال وجود مغايرة ومثيرة للجدل، فسيكون قد دخل في بداية منعطف مهيب نحو الألوهيّة. في العقود القليلة القادمة ستكون الخطوات الأوليّة نحو الحياة الأبديّة قد بدأت.

- إذا استطاع الإنسان أن يُطوّر دماغه وراثيًّا واصطناعيًّا وبرمجيًّا لكي يكتسب قدرات إدراكيّة خارقة، فسيكون قد دخل في بداية منعطف خطر نحو الألوهيّة. في العقود القليلة المقبلة ستكون الخطوات الحاسمة نحو تطوير الدّماغ البشري قد تمّت.

لا يتعلّق الأمر هذه المرّة بقصص الخيال العلميّ، وإنّما يتعلّق بمشاريع عمل كبرى، تديرها شركات عملاقة، ومختبرات ضخمة، وتدعمها نخبة من أكثر العلماء كفاءة، وأكثر الخبراء مهارة، وأغنى الأثرياء. وإن كانت متمركزة في معظمها داخل الولايات المتحدة الأمريكيّة، فهذا لا يمنع من وجود منافسين أشدّاء داخل روسيا والصين والاتّحاد الأوروبي وغيرها، غير أنّ المنافسين متعاونون هذه المرّة، طالما أنّ "سماء الله" واسعة شاسعة)[242].

---

[241] المقال منشور على موقع جمعية الأوان بتاريخ 12 ماي 2017.
المقال منشور على موقع جمعية الأوان بتاريخ 12 ماي 2017. المقال بعنوان : البشريّة في منعطفها الأخير نحو الألوهيّة

[242] من مقال لسعيد ناشيد على موقع «الأوان « بعنوان : البشريّة في منعطفها الأخير نحو الألوهيّة

ثم يذكر أمثلة عن الأبحاث العلمية الجارية في هذا الشأن ويسرد -وهو غارق في خرافته- بعض الأعراض الجانبية التي قد تصحب تحول البشر إلى آلهة !). ومع كل هذا فإنه لا زال ممكنا تقديم الاستاذ ناشيد مفكرا تنويريا إسلاميا يسعى إلى إصلاح الدين وتنقيته مما دخل فيه من الشوائب وإيجاد نوع من التدين العاقل الذي يواكب الحداثة ولا يتنافى مع قيم العصر. ربما هو تدين قائم على عبادة وثن اسمه: الانسان.

وهكذا حال الملحد مهما كابر وتهرب من مواجهة الأسئلة الوجودية الكبرى وسعى لنزع القداسة عن الاسلام إلا ارتد في أعماقه إلى تقديس المدنس وتعظيم الوثنيات الخرافية، بسبب بداهة كثير من الاشكالات التي تلاحقه، يصف رينيه دوبو[243] هذا الاشكال الداخلي عند الملاحدة بقوله : (والقبول الواسع لمواقف لا دينية في المجتمعات المعاصرة وضع إنسانها الملحد في موقف صعب، فرغما عن تطرفه الشديد في اندفاعه لإزالة القداسة عن كل شيء لم يستطع أن يحرر نفسه تماما من الماضي، فطبيعته الدينية القديمة باقية دائما في أعماق كيانه مستعدة لأن تنشط لأنه ملاحق دائما بنفس الحقائق التي يحاول إنكارها)[244].

وفي الختام...

أحمد الله على منه وكرمه وعونه في إكمال هذا العمل، وهذا ما تيسرت كتابته عن دعوات «أسلمة الالحاد»، دعوات ما تفتأ تجد لها مؤيدين ومناصرين في العالم الاسلامي، فيمضي التيار الجارف يسحب معه أعدادا من الضحايا، وينشر التشرد الفكري والتسيّب المنهجي، فأرجوا أن أكون قد وفقت في عرض مزاعم التجديد وبيان ما فيها من الإلحاد الصريح، لإدراك الخطر الداهم الذي تمثله هذه الانحرافات الفكرية الجديدة بما تختزنه من مناهج تدمر الهوية الاسلامية. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

عبدالله الشتوي

أكادير في ربيع الأول 1440

[243] رينيه دوبو: (1982-1901) أخصائي بيولوجي أمريكي من أصل فرنسي، وكاتب ومؤلف واستاذ الطب بجامعة هارفرد ، اتجهت معظم أعماله للدراسة التجريبية للأمراض وتحليل العوامل البيئية والاجتماعية المؤثرة على حياة الانسان.

[244] إنسانية الإنسان- رينيه دوبو – ص: 149

فهرس الأعلام المترجم لهم

المصادر والمراجع

وجهة الاسلام – لمجموعة من الاكاديميين- حرره جب هاملتون، ترجمة محمد عبدالهادي أبوريدة

الموسوعة الفلسفية –وضع لجنة ومن العلماء والأكاديميين السوفييت–دار الطليعة للطباعة والنشر - بيروت

جامع البيان عن تأويل القرآن- دار النوادر

محمد عابد الجابري- التراث والحداثة – مركز دراسات الوحدة العربية

الممنوع والممتنع نقد الذات المفكرة – علي حرب – المركز الثقافي العربي الطبعة الرابعة 2005

صالح هاشم – الانسداد التاريخي: لماذا فشل مشروع التنوير في العالم العربي

صحيح البخاري- دار ابن حزم

مستقبل الثقافة في مصر – طه حسين –دار المعارف

المدينة الفاضلة عبر التاريخ – ماريا لويزا برنيري – ترجمة عطيات أبوالسعود – سلسلة عالم المعرفة

ريني ديكارت – مبادئ الفلسفة (نسخة رقمية)

وهم الشيطان: الإلحاد وحججه العلمية- ديفيد بيرلنسكي

The Big Bang and Georges Lemaitre- A.berger institue d'astronomie et de geophysique georges le maitre université catholique de lauvin, Belgique

God and the Astronomers - ROBERT JASTROW

ستيفن هوكينغ – تاريخ موجز للزمن، ترجمة مصطفى ابراهيم فهمي - الهيئة المصرية العامة للكتاب

الفروق- شهاب الدين القرافي (نسخة رقمية)

بدائع الفوائد – ابن القيم

البيان والتحصيل – ابن رشد الجد

الفتاوى الكبرى- فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية

تاريخية الفكر العربي الاسلامي- محمد أركون – مركز الانماء القومي

نقد الفكر الديني- صادق جلال العظم- دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت

الفكر الاسلامي قراءة علمية – محمد أركون – مركز الانماء القومي

من العقيدة إلى الثورة – حسن حنفي- دار الفارابي

رسالة في اللاهوت والسياسة لسبينوزا- ترجمة حسن حنفي –دار الفارابي

الرسول في الدراسات الاستشراقية – محمد شريف الشيباني.

نقد الحقيقة – علي حرب- المركز الثقافي العربي – الطبعة الثالثة - 2000

القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني- محمد أركون

العلمانيون والقرآن الكريم – أحمد الطعان –دار ابن حزم للنشر والتوزيع

النص، السلطة، الحقيقة- نصر حامد أبوزيد – المركز الثقافي العربي 1995

الحداثة والقرآن- سعيد ناشيد – التنوير للطباعة والنشر والتوزيع

من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث – جورج طرابيشي – دار الساقي

الامام الشافعي وتأسيس الايديولوجية الوسطية – نصر حامد أبوزيد –المركز الثقافي العربي
الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية في الاقطار الاسلامية- أبوالحسن الندوي – الطبعة الاولى
حوار الأجيال- حسن حنفي- دارقباء للطباعة والنشروالتوزيع 1998
من النص إلى الواقع محاولة لإعادة بناء أصول الفقه – حسن حنفي-دار المدار الإسلامي بيروت الطبعة الاولى 2005
نحو أصول جديدة للفقه الاسلامي – محمد شحرور- الأهالي للطباعة والتوزيع
ما وراء تأسيس الأصول – علي مبروك – رؤية للنشروالتوزيع الطبعة الاولى 2007
الدين والدولة وتطبيق الشريعة – محمد عابد الجابري –مركزدراسات الوحدة العربية 1996
التراث والتجديد- حسن حنفي- المؤسسة الجامعية للدراسات والنشروالتوزيع بيروت 2002
التراث والحداثة- محمد عابد الجابري- مركزدراسات الوحدة العربية الطبعة الاولى 1999
نقد الخطاب الديني- نصر حامد أبوزيد- مكتبة مدبولي القاهرة الطبعة الاولى 1995
قضايا في نقد العقل الديني- محمد أركون- ترجمة هاشم صالح – دار الطليعة للطباعة والنشر ط الأولى 1998
ابن رشد وسبينوزا وعصر التنوير الاوروبي – أشرف حسن منصور (مقال)
ابن رشد والرشدية – ارنيست رينان- ترجمة عادل زعيتر – دارإحياء الكتب العربية
كوستاف لوبون – روح الاجتماع- ترجمة أحمد فتحي زغلول- مؤسسة هنداوي
محمد حسنين هيكل – في أوقات الفراغ: مجموعة رسائل أدبية تاريخية أخلاقية فلسفية
هوامش على كتاب نقد الفكر الديني - الشيخ محمد حسن آل ياسين
تاريخ القرآن- تيودور نولدكه- دارنشر جورج ألمز 2000
الثورة والحياة اليومية - ليون تروتسكي (نسخة رقمية)
موقع هاريس أنتراكتيف التفاعلي (Harris Poll)
لسان العرب – ابن منظور- دار النوادر

رقم الإيداع القانوني: 2018MO5994
ردمك: 978-9920-36-924-4

هذا الكتاب:

إن إدراكنا للعلاقة الجلية بين الإلحاد والتنوير المزعوم يجعلنا نفهم حقيقة كثير من الاشكالات الفكرية المعاصرة حول الشريعة والعقيدة الاسلامية، ومصداق هذه العلاقة في واقعنا هو ذاك الاصطفاف المريب للملاحدة مع دعاة هذا النوع من التجديد الاسلامي، فلو تأملنا حملات التشكيك في السنة النبوية سنجد احتفاء كبيرا بين الملاحدة بهذه الدعوات التجديدية، لإدراكهم أن هذه الدعوات -بما تحمله من آليات تفتقر للنزاهة العلمية- ليست سوى قنطرة موصلة إلى الإلحاد.
ولا شك أن ظاهرة التشكيك والقدح في ثوابت الاسلام قديمة قدم الاسلام نفسه، لكن صور هذه القطيعة المعاصرة تختلف ومسالكها تتباين عن المعهود قبلا، هذه القطيعة مع الدين لم تحدث في أوروبا إلا عبر مراحل متتالية وظروف خاصة تتعلق بالديانة الكنسية منذ عصري النهضة والتنوير، وهكذا فإن إلحاد سبينوزا المصبوغ بصبغة دينية في القرن السابع عشر هو الذي أوصل إلى إلحاد نيتشه العدمي في القرن التاسع عشر، ونفس المسار يراد اليوم اتباعه في بلدان العالم الاسلامي باعتبار ذلك هو السبيل الوحيد نحو الرقي والحضارة.